أوراق الليل

عبد الوهاب مطاوع

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: قالت الأيام.. للكاتب عبدالوهاب مطاوع الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجمعة لبريد الجمعة

قالت الأيام

عبدالوهاب مطاوع

هذا الكتاب

كنت مشغولا بإعداد كتابي هذا للنشر، وانتهيت من اختيار مجموعة القصص الإنسانية الواقعية التي تعاملت معها خلال الفترة الماضية في بريد الجمعة، وراجعتها من جديد وراجعت ردودي عليها، واكتشفت خلال عملية المراجعة أن ردودي قد بدأت في السنوات الأخيرة تميل للإطالة والإسهاب وتستسلم لإغرائهما بعض الشيء، فلمت نفسي على ذلك كثيرا وعزمت على أن أحاول الالتزام بما اجتهدت دائما للالتزام به منذ أمسكت بالقلم، وهو ألا أكتب كلمة أو عبارة أشعر خلال مراجعتي لها أنه يمكن حذفها والاستغناء عنها اكتفاءً بما سبقها من كلمات، ولقد اعتدت بعد أن أنتهي من كتابة ردي على كل رسالة من رسائل المهمومين الذين يكتبون إليّ، أن أعيد صياغة هذا الرد مرتين، وأحيانا ثلاث مرات، وبعد إعادة الصياغة هذه فإنني أعمد إلى مراجعته مرة أخرى لأقوم بتوثيق ما تضمنه الرد من استشهادات بآيات الذكر الحكيم، أو الأحاديث الشريفة، أو كلمات المفكرين والفلاسفة، أو أشعار الشعراء، وتستغرق مني عملية «التوثيق» هذه وقتا كبيراً لأني أكتب ما أستشهد به في البداية عفو الخاطر واعتماداً على ذاكرتي.. ثم أهتم خلال مراجعتي لردي بتوثيقه والتأكد من دقة عبارته خوفاً من غدر الذاكرة بي، فأرجع إلى مراجعي، وأستوثق مما استشهدت به، وأسعد في بعض الأحيان حين أجد ذاكرتي قد أسعفتني بنص العبارة بلا تحريف في كلمة أو حرف منها. وأشعر بوطأة العمر، ووهن الذاكرة في أحيان أخرى حين أجدني قد نسيت بعض الكلمات أو الحروف، وكتبت عبارة مشابهة في المعنى لكنها لم تلتزم بنص عبارة من استشهدت به حرفيا، وأقوم بتصويبها اعتماداً على مراجعي.

وبعد انتهاء عملية التوثيق هذه، أقرأ ردي على الرسالة القراءة الأخيرة قبل أن أسلمه للنشر، وتكون قراءتي هذه المرة بهدف واحد، هو أن أحذف منه كل ما أشعر بأنه استطراد لا يضيف للمعنى شيئا ذا بال، فتكون مراجعتي الأخيرة هذه لردي بمثابة مقص الرقيب الداخلي عندي الذي يشفق على القارئ من أن يقرأ ما لم تكن له به حاجة لقراءته، ويشفق في نفس الوقت على كاتب هذه السطور من أن يستسلم لإغراء الثرثرة التي لا طائل تحتها، ولا هدف إلا إثبات الذات أو إشعار القارئ بوجوده.

فكيف إذن وجدت ردودي قد مالت للإطالة والإسهاب على هذا النحو في السنوات الأخيرة؟ أيكون حرصي على أن أحيط بكل جوانب المشكلة والتعليق عليها هو السر في ذلك، أم يكون السبب هو «تنبهي» الدائم خلال الرد إلى أنني لا أكتب ردي لصاحب المشكلة وحده، وإنما لكل من يمكن أن تضعهم الأقدار في ظروف مشابهة لظروفه ليستفيدوا بدرس التجربة ويتجنبوا آلامها؟

لابد أنهما السببان معاً.. وبالأخص السبب الأخير، فالحق أنني أقول دائما إنني لا أتعامل مع «أشخاص» التجربة الإنسانية الذين يكتبون لي بشأن همومهم بقدر ما أتعامل مع «النماذج البشرية» الذين يمثلونها.. ولهذا فإني لا أعتبر ردودي عليهم رداً شخصية تتعلق بهم وحدهم، وإنما أعتبرها تحليلاً لهذه النماذج

البشرية نفسها التي قد يندرج تحتها كثيرون غيرهم، فلعل هذا السبب يكون عذرا مقبولاً لي فيما استشعرته من بعض الإطالة في ردود على رسائل القراء الأخيرة.

واص لك

ولعلي أظلم نفسي حين أتهمها بالضعف تجاه ما أكتبه حين أعيد قراءة هذه الردود، كما فعلت خلال مراجعتي لهذا الكتاب لأحذف، منه ما لا حاجة للقارئ بقراءته، فلا تسفر المراجعة غالبا إلا عن بضع كلمات هنا أو هناك.

ومع ذلك فلقد أمضيت ساعات طويلة وأنا أقرأ ما كتبت من قبل؛ لأختار هذه المجموعة الجديدة من قصص بريد الجمعة الإنسانية، ولأحذف من ردودي بعض الكلمات الزائدة فيها. وحين انتهيت من ذلك، بدأت التفكير في المهمة الأصعب، وهي اختيار عنوان هذا الكتاب..

وكعادتي أيضاً في كل كتبي السابقة، فلقد كتبت له حوالي عشرة عناوين مختلفة، فلم أرض عن واحد منها.. وتلفت حولي أرقب الكتب المطلة على من رفوف مكتبتي، وقرأت عناوينها محاولا استلهام عنوان ملائم من وحيها، ثم ضقت بعناء التفكير في العنوان، فنهضت إلى رف دواوين الشعر في المكتبة لأقرأ فيه بعض الوقت مستروحاً، فإذا بيدي تقع على ديوان أبي القاسم الشابي «أغاني الحياة»، وإذا بي أقلبه فتقع عيني على قصيدته القصيرة الجميلة: قالت الأيام.

فأهتف صامتا: يا إلهي، إنه العنوان الذي أريده لكتابي هذا.. فكل ما فيه من قصص إنسانية ومن أنات حائرة وتأوهات متحسرة، هو في مجموعه ما قالته الأيام لهؤلاء المهمومين بأمرهم في الحياة.

فشكراً للشاعر المعذب الذي غنى للحياة فاختطفه الموت وهو في الخامسة أو السادسة والعشرين من عمره.

وشكراً للقارئ العزيز الذي يستقبل كتبي المماثلة بما أنحني له تقديراً وحبا وامتناناً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبد الوهاب مطاوع

جحيم العودة

»تبدأ المأساة حين ينظر الناس
إلى الأمر غير العادي وكأنه من
الأمور العادية، فتصبح القاعدة
هي الاستثناء والاستثناء هو
القاعدة!«.

أنا شاب نشأت يتيما، فقد توفي والدي - رحمه الله - وأنا مازلت بالمرحلة الابتدائية، وبعد وفاته بسنوات تزوجت أمي من موظف انضم إلى بيتنا وعاش معنا، وكان طبيعيا أن نقابله أنا وأخي بالشعور المعتاد في مثل هذه الأحوال من أطفال صغار تجاه زوج أمهم، لكنه بمرور الوقت سقط حاجز الجفاء من جانبنا تجاهه، واعتدنا وجوده بيننا بصورة طبيعية بعد أن لمسنا معاملته اللطيفة لنا، وبعد عام من الزواج أنجبت أمي من زوجها طفلة فرحنا كأطفال فرحة صادقة بقدومها وانضمامها لأسرتنا.

وبإنجاب أمي انشغلت بعض الشيء عن إدارة مشروع تجاري صغير كان يدر علينا دخلا معقولا، وبدأ زوجها يديره نيابة عنها إلى جانب وظيفته، إلى أن اكتشفت أمي أن زوجها يختلس لنفسه منه ما يغطي به نفقاته الإضافية، فكانت أزمة بينهما، وواجهته بما عرفت، واعترف هو بجرأة أنه يحصل لنفسه على ما يراه حقا له مقابل إدارته للمشروع، فقررت أمي أن تتخلص منه بالبيع وتغلق باب المتاعب.. وباعته بالفعل رغم معارضة زوجها، فإذا به يطالبها «بجرأة» أشد بنصيبه من ثمن البيع، ورفضت أمي بالطبع، فتطاول عليها بالضرب والسب أمام الجيران، وانتهى الأمر بينهما بالطلاق، ورحل الرجل عن بيتنا مصطحبا معه طفلته الصغيرة. وبعد فترة من الطلاق بدأت أمي تشتاق إلى طفلتها، وبدأ الرجل من جانبه يحاول الإصلاح من خلال بعض الوسطاء، واستجابت أمي لهذه المحاولات لأنها كانت تحبه للأسف.. فأعادها الرجل إلى عصمته مرة أخرى، ورجع للإقامة معنا، لكن الحياة لم تستقم رغم ذلك طويلا بينهما، فقد كان مازال يتطلع إلى ما بقي معها من ثمن المشروع الصغير.

وحدثت بينهما مشاكل عديدة انتهت بطلب أمي الطلاق منه للمرة الثانية، وتم الطلاق لكنه لم يطل، فتم الصلح والزواج مرة ثالثة..

وبدلا من أن يتوقف المسلسل عند هذا الحد، واصل تقلباته فوقع الطلاق الثالث والأخير، وغادر الرجل البيت تاركًا أختنا معنا، وتنفسنا أنا وأخي الصعداء أخيرا، واسترحنا إلى انقطاع صلتنا بهذا الرجل نهائيا، ورجعنا للحياة بهدوء وبلا مشاكل ومشاجرات يشهدها الجيران، فلم يمض وقت طويل حتى بدأ الرجل يرسل إلى أمي رسولا من طرفه من حين لآخر طالبا رؤية ابنته، فتذهب إليه أختي كل مرة في مكان مختلف لأنه كان بلا مأوي دائم بسبب خلافات شديدة مع أهله، وترجع أختي

من زيارتها لأبيها فتسألها أمي عن أحواله.. وتجيبها بأنها سيئة للغاية لأنه فقد وظيفته منذ فترة ويتنقل بين الفنادق الرخيصة، ولا يستطيع العودة إلى بيت أسرته، فتتألم أمي لحال الرجل وترثي له.

وأنا أرقب ذلك وأتوجس شرا مما قد يجره علينا من متاعب، وشيئا فشيا بدأت أمي ترسل إليه مع ابنته طعاما منزليا شهيا لأنه - يا حرام - يعيش على الأكل الجاف وطعام المطاعم الرخيصة، ثم بدأت ترسل له من حين لآخر بعض النقود، وتطلب من أختي أن تحضر معها في المرة القادمة حقيبة ملابسه لتغسلها وتعيدها إليه نظيفة مكوية، وبدأت أعترض على ذلك وأنبه أمي إلى أن علاقتها بهذا الرجل قد انقطعت نهائيا بالطلاق الثالث، ولا ينبغي أن تكون بيننا وبينه أية صلة، فتقول لي: إنه على خلاف دائم مع أسرته ولا يجد من يرعى شؤونه، وأنها إنما تفعل ذلك لوجه الله فقط لا تريد عليه جزاء ولا شكورا، ولم أقتنع بهذا المبرر، لكني لم أملك وسيلة لوقف الاتصال به عن طريق أختي، حتى فوجئت بالرجل يحمل ابنته رسالة برغبته في أن يتناول الغداء معنا في موعد حدده، وانزعجت لهذه الرغبة انزعاجا شديدا، وأكدت لأمي أن عودته إلى بيتنا بأي شكل من الأشكال حرام، لأنه رجل أجنبي عنها الآن ولا تربطنا به صلة، لكنها لم تأبه لاعتراضي، وفرحت برغبته، بل وطارت بها فرحا، ونهضت بحماس لإعداد طعام الغداء وأنا في قمة الغضب والغيظ، وجاء الرجل فلم أحتمل رؤيته في بيتنا، وغادرت البيت غاضبا، ورجعت أشد غضبا وغيظا، وكررت على أمي ما قلته لها من أن الشرع قد فرق بينهما فراقا نهائيا بالطلاق الثالث، لكني لم أجد منها آذانا صاغية للأسف.

ويوما بعد يوم تكررت دعوات الغداء في بيتنا بحضور أختي وأمي حتى أصبحت شبه يومية، وكان الرجل قد عمل عملا آخر مربحا واستقرت أحواله المالية، فعرض عليها أن يدفع لها ما يدفعه للفندق مقابل إقامته فيه، على أن يعود للإقامة بيننا متظاهرا أمام الجيران بأنه، قد أعادها إلى عصمته لكي تنشأ ابنته بين أبويها، على أن يقيم في غرفة مستقلة، وعلى ألا تربطه بها أية صلة إلا صلة الأجنبي عنها..

وسألتني أمي في ذلك فكدت أنفجر من الغيظ، واعترضت بشدة مؤكدا أن هذا التصرف حرام حرام بكل معنى وكل شكل، بل واضطررت لأن أقول لها مغالبا حرجي وخجلي كابن وشاب يفهم معني ما يقوله، وهو أنني أعرف أنها تحبه، وأخشى لو عاش بيننا أن تتجدد صلتها به بشكل أو بآخر.. فبكت بشدة ولامتني بعنف على سوء ظني بها، وقالت لي: إنها لا تريد إلا أن تربي ابنتها بمشاركة من أبيها، وأنها لا يمكن أبدا أن تقترف ما يسيء إلى شرفها وأبنائها ويثير عليها غضب ربها.

ولم تجد محاولاتي معها في إثنائها عن قبول هذا الوضع الغريب وعاد الرجل للإقامة بينا بعد أن أقنع الجيران أنه قد أعاد زوجته إلى عصمته حرصا على مستقبل ابنته، ولم أعرف أنا ماذا أفعل ولا كيف أواجه هذا الموقف الذي ورطتني فيه أمي - سامحها الله- وشيئا فشيئا بدأ الرجل يتصرف بإحساس رجل البيت، فيأمر وينهى ويطلب ويتمتع بكل حقوق صاحب البيت في المأكل والملبس

والخدمة مقابل ما بدأ يغدقه على أمي من نقود بسخاء أدار رأسها وفتح شهيتها للصرف والإنفاق، حتى خيل إلى أنها قد أصابها سعار النقود، وفي هذا الجحيم أعيش يا سيدي منذ فترة وأنا شاب في الثلاثين من عمري.. بما يعنيه كل ذلك من اعتبارات محرجة.. وأسمع من حين لآخر أن الرجل قد ثار وسب أمي في غيابي لشيء قد أخذه عليها في ملابسه أو خدمته، فيغلي الدم في عروقي وأهم بالاشتباك معه، فتمنعني أمي بالإلحاح والبكاء خوفا من الفضائح، وأسألها متألما: وماذا يجبرنا على قبول هذا الوضع المعيب يا أمي؟.. فتقول لي: وكيف نواجه الحياة وما يقدمه لى من نقود يساهم بالقدر الأكبر في نفقات حياتنا؟ فتلقمني بذلك حجرا وأشعر بالعجز لأن معاش أبي ضئيل ومرتبي صغير ولا يكفي لمطالب أمي التي انفتحت شهيتها فجأة للإنفاق.

إنني أعيش في لهيب الجحيم وأعرف أن الوضع في بيتنا خاطئ وغير مقبول بكل الصور، وأشعر بواجبي في تغييره، لكن ماذا أفعل يا سيدي و(المنكر) الذي لا يستريح ضميري إلا بتغييره هو أمي نفسها سامحها الله؟

إن أمامي الآن فرصة للإقامة مع بعض زملائي في العمل في مسكن مفروش مع ما في ذلك من تكلفة مادية إضافية لي.. فهل أهجر بيتي وأقيم مع زملائي وأقاطع أمي نهائيا؟

وهل لو فعلت ذلك أكون قد عققتها أو أسأت إليها فأستحق بذلك غضبها أو أن تدعو على ذات يوم بالشقاء والتعاسة والمرض وتستجيب السماء لها؟

إن عقلي يوشك على الانفجار، وأرجو أن تشير على بالرأي الذي ينتشلني من هذا الجحيم.. وألا تهمل رسالتي أو تتأفف منها فترفض مساعدتي بالرأي.. فماذا تقول لي؟... وشكرا لك مقدما.. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

هناك كلمة حكيمة للكاتب المسرحي الألماني برتولد بريخت يقول فيها: تبدأ المأساة حين ينظر الناس إلى الأمر غير العادي كأنه من الأمور العادية، فتصبح القاعدة هي الاستثناء والاستثناء هو القاعدة وتضطرب القيم وتفسد المعايير!

ولأن الأمر كذلك فلابد يا صديقي من أن نتمسك منذ اللحظة

الأولى وحتى النهاية برفض كل ما هو غير مألوف ولا مقبول دينيا وخلقيا؛ حتى لا يتحول بمرور الأيام وتأثير العادة إلى أمر من الأمور العادية التي نتعايش معها ونألفها وتألفنا.

والوضع في أسرتك وفي بيتك غير مقبول ولا مألوف بكل المعايير الدينية والأخلاقية.. ومع تقديري لما يحيط بالأمر كله من حرج مؤلم لشاب في مثل سنك،

فإن مقاومتك لهذا الوضع لم تكن منذ البداية متكافئة ولا متناسبة مع حجم خروجه على المألوف ولا مخالفته للأعراف والقيم السائدة.. فقد اكتفيت بالاعتراض بشدة على قبول والدتك لعودة زوجها السابق للإقامة بينكم وبتذكيرها بمخالفة هذا الوضع للشريعة وأحكام الدين، ثم لم تفعل شيئا أكثر من ذلك وسكتَّ وأنت كظيم، وقبلت بالحياة وسط الجحيم الذي يجرح مشاعرك، حتى بدأ بمرور الأيام يتحول إلى أمر مألوف، وبدأ الرجل يتصرف بإحساس رجل البيت، فيأمر وينهي ويسخط على أي تقصير في تلبية مطالبه، بل ويسب ويلعن أيضا عند الضرورة. وليس هذا، سلوك رجل أجنبي اضطرته الظروف للإقامة بين أفراد أسرة زوجته السابقة، ولا هو سلوك ضيف عابر لا حق له على أصحاب البيت إلا حسن الوفادة.. والمثل من حق الإنجليزي القديم يقول: إنه ليس الضيف أن يعترض على أصحاب البيت، وصاحبك يتجاوز حد الاعتراض إلى ما هو أبعد منه بكثير، وقد كان بمقدورك أن تمنع كل ذلك لو قاومت هذا الوضع الخاطئ ومنعته من البداية وبصلابة وبموقف صارم لا يقبل المساومات، والمبررات الواهية.

وقد كانت أبسط الوسائل لتحقيق ذلك هو أن تواجه هذا الرجل إذا عجزت عن إقناع والدتك برفضه، وأن تعلنه أنك لا تقبل إقامته بينكم، وأنك سوف تمنع ذلك بكل السبل المتاحة، والحق والشرع، بل والقانون أيضا معك في ذلك، حتى ولو اضطررت لاستخدام سلاح التهديد بفضح أكذوبة عودة والدتك لعصمة هذا الرجل، ولو فعلت ذلك وحده لما جرؤت والدتك على تحدى إصرارك على منع الرجل من دخول البيت أصلا، ناهيك عن إقامته بينكم إقامة دائمة.

أما المبرر المادي الذي تقدمه لك والدتك، والذي تقف أنت أمامه شاعرا بالعجز والضآلة.. فهو ليس سبباً جدياً ولا مقبولاً بأية حال من الأحوال. وحتى ولو كان كذلك لما أعفاك من مسؤوليتك العائلية والدينية والأخلاقية عن منع هذا الوضع الخاطئ والتصدي له بكل حزم، فلقد كنتم تعيشون بمعاش أبيك ومرتبك الصغير وببعض المدخرات الباقية من تصفية المشروع التجاري قبل عودة هذا الرجل للإقامة بينكم، فماذا جد في أوضاعكم حتى أصبحت مساهمته المادية في ميزانية أسرتكم ضرورية وملحة ولا يمكن الاستغناء عنها كما تحاول والدتك إيهامك بذلك؟... لقد كانت تمد هذا الرجل نفسه قبل فترة قصيرة بمساعدتها المادية خلال فترة تعطله... فكيف أصبحت إقامته بينكم بعد شهور ضرورة حياة الاستمرار مساهمته المادية في نفقات الأسرة؟

وحتى لو افترضنا ذلك، فإن الرجل مسؤول شرعا وقانونا عن كل تكاليف حياة ابنته التي تعيش بينكم، وما يدفعه لوالدتك هو حق لابنته عليه لا يتطلب أن يقيم معكم، ولو امتنع عن أدائه لوالدتك فهناك أكثر من وسيلة لإجباره على ذلك. ولا حد في النهاية لمطالب الإنسان المادية مهما كان مستوى دخله لو استسلم لرغباته وتطلعاته وتفتحت شهيته للإنفاق وللحياة، فمطالب الحياة واحتياجات الإنسان بحر بلا شطآن، فهل يعني ذلك أن يسلم الإنسان بما يخالف أوامر ربه ونواهيه ويقبل بالدنية في دينه ودنياه بمبرر احتياجاته المادية..

ضرورية كانت أم ترفيهية؟

إنك تسألني في النهاية: هل تهجر بيتك وتقيم مع زملائك وتقطع كل صلة لك بأمك؟.. وهل تكون قد عققتها إذا فعلت ذلك؟.. وهل تستحق بذلك غضبها وغضب السماء لغضبها عليك؟

وجوابي هو أنك تكون قد عققت أمك حقا وصدقا إذا تركت هذا الوضع الخاطئ في بيتك، وفررت من مواجهته ومن مسؤوليتك عن إيقافه وتغييره بكل السبل المتاحة لذلك، ومنها استنفار أخيك الذي لا أدري أين اختفى ولا ما هو موقفه مما حدث لمساندتك في هذا الأمر.

وثق أن والدتك لو استشعرت (ضراوة) إصرارك على تغيير هذا الوضع الخاطئ وأنك لن تسكت على استمراره يوما واحدا بعد الآن، لما ملكت إلا الاستجابة لإرادتك، ولأنهت هذا الوضع الشائن راضية أو ساخطة، ولا يهم كثيرا في هذا الأمر رضاها ولا سخطها لأنك إنما تسعى إلى نيل رضا من هو أعظم قدرا وأجل شأنا سبحانه وتعالي.. فضلا عن استعادة ثقتك في نفسك وراحة ضميرك..

أما خشيتك من غضب السماء عليك إذا قاطعت أمك، فلست أرى لك مقاطعتها إلا إذا استنفدت كل الوسائل لإرجاعها عن الخطأ واستحالت الحياة بينكما، وطالبتك هي بهجر البيت تمسكا بالخطأ وإصرارا عليه.. ففي هذه الحالة فقط لا أرى لك البقاء في البيت وأؤيدك في هجره ومقاطعته نأياً بنفسك عن معايشة الخطأ والسكوت عليه، فيكون هجرك للبيت رادعا آخر عاطفيا وإنسانيا لوالدتك لحثها على تغيير هذا الوضع الخاطئ.

والسماء في النهاية لا تغضب لغضب من يجترئ على حدود ربه فيسخط على من لا يقرونه عليه، ولا ترضى لرضا المجترئ على هذه الحدود عمّن يقرونه على الخطأ أو يسكتون عليه.. فالله جل شأنه هو العدل إسما ومعني سبحانه،»إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِين»، وليس من الخطاة ولا ممن يريدون قلب الأوضَاع والمعايير، فيجعلون القاعدة استثناء ومن الاستثناء قاعدة، وعفوا لأية كلمة شاردة قد أكون قد آلمت بها مشاعرك من حيث لم أرد ولم أحتسب، فالحق أنني قد كرهت رسالتك هذه من البداية، واعتزمت تجاهلها لما تحمله من معان غير مريحة، لكنك أرسلتها إليّ مرتين وألححت عليّ فيهما ألا أتجاهلك وأن أشير عليك بما ينقذك من الجحيم الذي تعيش فيه..

وأرجو أن أكون قد فعلت.. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثمن الحرمان

»إنَّ خير ما ننتقم به ممن أساءوا
إلينا هو ألا نصبح مثلهم، وألا
ننجرف إلى نفس صغارهم
ودناياهم معنا!».

لا أعرف ماذا ستقول عني بعد أن تقرأ هذه الرسالة.. لكني أكاد أجزم بشيء واحد، هو أنك ستهتف بينك وبين نفسك قائلا: سبحان الله! ثم تقول لي بعدها ما تشاء من رد أو تعليق.. وأبدأ معك القصة من البداية فأقول لك: إنني قد تعرفت بها وهي تعمل خارج وتألفنا سريعا واتفقنا على الارتباط.. وتم الزواج بالفعل وبدأنا حياتنا الزوجية، ثم ما لبثت أن رجعت إلى مقر عملها لتقضي العام الأخير من إعارتها، وانتهى العام سريعا أو بطيئا لست أدري..

ورجعت زوجتي، فإذا بها تدخر لي مفاجأة غير متوقعة هي فرصة عمل في نفس البلد الذي كانت تعمل به، ولم أكن في الحقيقة شديد التحمس للسفر، فعملي في بلدي مستقر ودخلي منه لا بأس به، وزوجتي كما يقولون (مستورة ولديها رصيد في البنك، وقد تزوجنا في الشقة التي تملكها ولم تنجب بعد، لكن زوجتي أقنعتني بضرورة السفر لتأمين مستقبلنا أكثر وأكثر، وألحت على بتأجيل الإنجاب إلى أن تنتهي فترة غربتي ونرجع للاستقرار معا في مكان واحد، واقتنعت بمنطقها الحكيم.. وسافرت وفي نيتي ألا تطول، غربتي عن عامين، وعشت وحيدا أؤدي عملي بإخلاص، وأرسل إلى زوجتي ما يزيد على متطلبات حياتي من نقود كل شهر لتضعها في حسابها في البنك.. فليس لي حساب بإسمي، ولم يتسع الوقت لي لأن أفتح لنفسي حسابا جاريا قبل السفر، وزوجتي محل ثقتي.. وهدفنا واحد وهو تأمين مستقبلنا معا، ومضى العام الأول والثاني أيضا على نفس الوتيرة.. والخطابات متصلة بيني وبين زوجتي.. أبثها شوقي وتبثني لهفتها على اجتماع شملنا ذات يوم قريب، وبدلا من أن أكتفي بعامين من الغربة كما خططت لنفسي، انسقت وراء إغراء تأمين المستقبل، وللرغبة في الاستفادة القصوى من الفرصة التي قد لا تتكرر مرة أخرى.. فمضى عام ثالث ورابع حرصت خلالهما أيضا على تحويل كل مدخراتي إلى زوجتي في مصر، ثم انتهى عقدي أخيرا، فرجعت راضيا عن نفسي وحياتي ومتلهفا على الحياة والاستقرار في بلدي وبين أهلي وبجوار زوجتي بعد طول العناء.. فلم تمض بضعة أيام.. أي والله يا سيدي بضعة أيام وليس شهورا.. حتى فوجئت بزوجتي تطالبني بالطلاق! لماذا.. وماذا حدث بيننا من مشاكل أو خلافات ونحن لم نلتق طوال أربع سنوات سوى فترات قصيرة للغاية؟ لا جواب سوي طلب الطلاق والإصرار عليه، وجن جنوني وحاولت أن أعرف سر هذا الانقلاب المفاجئ.. وسألت وتحريت، فقيل لي: إن هناك مشروعا قديما للزواج سبق ارتباطي بها وفشل لأسباب لا أعلمها، وأنه قد تم إحياء هذا المشروع القديم في الفترة الأخيرة من غربتي، ولم يبق إلا التخلص من العقبة

التي تعترضه وهي الزواج الحالي.. لهذا كان طلب الطلاق والإصرار عليه دون إبداء أسباب!

ولم أواجه زوجتي بما سمعت، فقد كرهت لنفسي أن أستجدي إخلاصها لي.. وقررت أن أستجيب لطلبها للطلاق بعد تسوية الأمور المعلقة بيني وبينها، وأهمها مدخراتي التي حولتها إليها في أربع سنوات، فإذا بها تقول لي بجرأة عجيبة إنه لا حق لي في معظمها.. لأنها (ثمن الحرمان) الذي تحملته راضية طوال أربع سنوات وهي تعيش وحيدة، وأنه بعد خصم مؤخر صداقها ونفقتها لمدة عام ونفقة المتعة.. و (فارق) ثمن الشبكة التي كان ينبغي أن أقدمها لها وليست تلك التي قدمتها، و(فارق) المهر اللائق بها وليس ذلك المهر الاسمي المتواضع الذي دفعته، وبعد خصم بعض التكاليف الإضافية للزواج التي تحملتها هي متطوعة وبغير أن أطالبها بذلك، وخصم (ثمن الحرمان) الذي لا يقدر بمال، فإنه لا يبقى لي من شقاء غربتي لديها إلا حوالي الربع فقط، وسوف تدفعه لي راضية بمجرد إتمام الطلاق.

ذهلت لما سمعت واسودت الدنيا في عيني، ولم أدر ماذا أفعل وأنا أرى شقاء غربتي يضيع أمامي، إلى جانب ما أحس به من هوان وطعن لرجولتي، فلجأت إلى الوسطاء بيننا لنتوصل معا إلى حل عادل لا تغتصب به مالي وشقاء غربتي ولا يبخسها في نفس الوقت حقها، فلم تفلح أية مساع للتوفيق بيننا، ويئست تماما من محاولات التوفيق، فسلمت بالهزيمة والعجز، وجمعت كل ملابسي وأوراقي وهجرت بيت الزوجية، ورجعت إلى بيت أمي أجر ورائي أذيال الخيبة وأشعر بقهر مرير.

ومضت ثلاثة أيام أكاد أجزم بأنني لم أذق خلالها طعم النوم، فإذا بزوجتي تتصل بي لتطالبني بالإسراع بإجراءات الطلاق، ولم يكن أمامي مفر سوى الاستجابة، فنهضت لأبحث بين أوراقي عن قسيمة الزواج لأطلقها وأستخلص منها بعض مدخراتي بحسابها الظالم، ورحت أقلب بين الأوراق، فإذا بي أعثر بينها على توكيل قديم موثق في الشهر العقاري منحته زوجتي لي خلال عام زواجنا الأول لكي أسحب من حسابها بالبنك مبالغ أسلمها لوالدها ووالدتها حسب رغبتهما، ونظرت إلى هذا التوكيل القديم الذي لم أره ولم أستعمله منذ 4 سنوات وأنا أرتجف وأتصبب عرقا، وتساءلت: ترى هل أراد لي الله أن أحفظ به حقي من الاغتصاب؟ لقد غبت أربع سنوات لم يرد خلالها ذكر هذا التوكيل على لساني أو لسان زوجتي مرة واحدة.. فلماذا تجاهلته هي؟ هل لأنها قد ألغته بغير أن أدرى وأبطلت أثره؟ أم هل لأنها أبلغت البنك بعدم صرف أية مبالغ من حسابها بمقتضي توكيل من أي نوع؟ لم أعرف شيئا من ذلك.

وكان الوقت - حين عثرت على هذا التوكيل — قرب الفجر، فلم أطق صبرا على البقاء في البيت، ونهضت فارتديت ملابسي وغادرت بيت والدتي إلى شوارع القاهرة أجوبها ذاهلا ومتفكرا، وأجلس في، مقاهيها الساهرة لأقطع الوقت، حتى أشرق الصباح بنوره على المدينة، وتعجلت الوقت أن يتحرك بكل لهفة إلى أن جاءت الساعة الثامنة والنصف، فكنت أول من دخل البنك ومعي جواز سفري

وبطاقتي الشخصية، وقدمت التوكيل لموظف البنك وأنا أترقب في كل لحظة أن يصدمني بأن لديه ما يمنعه من صرف أية مبالغ به، فإذا به يقدم لي أمر دفع ويطلب مني أن أسجل به ما أريد من النقود، فأمسكت بالقلم وغالبت ارتعاش يدي حتى أستطيع السيطرة عليه، وكتبت الرقم الذي يمثل كل مدخراتي في السنوات الأربع بدون العدوان على مليم واحد من مالها وقدمته لموظف البنك، فاستمهلني لحظات مضت وكأنها دهر، ثم فوجئت به يضع أمامي رزم أوراق البنكنوت ويقدم لي مظروفا كبيرا لأضعها به، فتنفست الصعداء وحملت المظروف، وغادرت البنك وأنا أشعر بأن الدماء قد سرت من جديد في عروقي، وأنني قد استعدت حيويتي التي فقدتها تماما خلال الأيام الثلاثة الماضية.

ومن البنك توجهت مباشرة إلى مكتب المأذون وانتظرته حتى جاء وأتممت الطلاق، ثم رجعت إلى بيتي خفيفا كالطائر المرح، واتصلت بزوجتي وأبلغتها بما فعلت بالتفصيل.. وأعلنتها أن ورقة الطلاق في الطريق إليها، وأن التوكيل لدي ينتظر أن ترسل لي من يتسلمه مني لأنني لا أغتصب مال أحد؛ فهاجت وماجت وتوعدت وهددت وبكت، وأنا صامت وسعيد ومبتهج.. وانتهت المكالمة.. وعلمت فيما بعد أنها قد اتصلت بزوج المستقبل وطالبته بأن يفعل شيئا ليعيد به إليها (مالها)، فأعلنها بعجزه عن أن يفعل أي شيء.. لأن ما فعلته أنا كان بمقتضي توكيل قانوني موثق ولا شيء فيه من الناحية القانونية.

ألم أكن على حق حين قلت لك في البداية إنك ستقول حين تقرأ هذه الرسالة: سبحان الله!

نعم سبحان الله يا سيدي والحمد لله.. والله أكبر على كل من طغى وتجبر، فقد انقلبت الآية، وبعد أن كنت أشعر بالقهر والذل والمرارة وأنا أتوسل إليها لكي لا تحرمني من معظم ثمرة شقائي، أرسلت هي إلى - بعد أن يئست من أية وسيلة أخرى - نفس الوسطاء الذين فشلوا من قبل في إثنائها عن رأيها لكي يناشدوني باسمها وباسم (العشرة الطيبة التي كانت بيننا أن أؤدي إليها حقها الكامل في مؤخر الصداق والنفقة ونفقة المتعة، إلى جانب تعويض عادل رأته وحددته هي مقابل التكاليف الإضافية للزواج التي تطوعت بأدائها دون طلب مني لكي نفترق بلا ضغينة، ولكي تبقى الذكرى الطيبة لكل منا لدى الآخر.. فتذكرت الليالي السوداء التي أمضيتها بلا نوم، وتذكرت ذلي وقهري وإحساسي بالهوان وأنا أسمع بمشروع الزواج القديم الذي تم إحياؤه في غيابي، ولم أجد من رد أقوله لهؤلاء الوسطاء سوي: أمامها المحكمة فلتلجأ إليها وسأقبل راضيا حكمها العادل، أما ما عدا ذلك فلا تفاهم ولا مودة مع من طعنتني في ظهري وحاولت اغتصاب مالي. وأعطيت الوسطاء التوكيل وانصرفوا فاشلين في مهمتهم. فما رأيك فيما فعلت يا سيدي؟..

ألا توافقني في أنه من حقي أن أرفض التفاهم معها وديا على دفع مؤخر الصداق والنفقة، ناهيك عن رفضي البات الدفع ما أسمته بالتعويض العادل، وأن أتركها تذهب إلى المحكمة وتتردد على جلساتها، حتى تعي الدرس ولا تتجبر بعد ذلك على أحد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

نعم قلت: سبحان الله تعليقا على رسالتك وعلى سرعة تغيير المواقع في قصتك بين من كان يمسك بيده خيوط القوة ويملي رغباته ويفرض تسويته الظالمة ولا يقبل فيها رجاء ولا مراجعة، وبين من كان لا يملك إزاء جبروت القوة سوى الإحساس بالعجز المهين والقهر المرير، لكني أقول لك بعد ذلك إنه من تمام الشكر لله – سبحانه وتعالى - على نصره لك ورده لكيد الكائدين بك إلى نحورهم..

ألا تستسلم لإحساس الزهو بالانتصار والاعتداد بإحساس القوة فيجرفك ذلك إلى موقف التعنت، ورفض أداء الحقوق لأصحابها التي كنت قبل قليل ضحية له وتستجير بالسماء لإنصافك منه. ذلك أن أسوأ ما في النفس البشرية - كما يقول لنا المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي - هو أن نفعل نحن بالآخرين ما كنا نجأر بالشكوى من ظلمه وجبروته قبل حين.

وقد استلفت نظر المستشرق الألماني الدكتور مراد هوفمان خلال دراسته للقرآن، أن سورة النصر تأمر المؤمنين ألا يتملكهم الزهو ساعة النصر، وأن يستغفروا ربهم في خشوع يذكرهم بأن النصر من عند الله، وأن للمهزومين حقوقا إنسانية ينبغي الوفاء لهم بها مهما كان من سابق عداوتهم وجبروتهم قبل انكسارهم. فالسورة الكريمة تبدأ بمقدمة منطقية هي: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا. أما النتيجة المنطقية المترتبة عليها فليست مما يمكن أن يخطر بوجدان بشر فطروا على التخاذل والانكسار عند الهزيمة، وعلى الزهو والشموخ عند الانتصار، فتقول: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا، وقال الدكتور هوفمان في تعليقه على هذه السورة التي توقف أمامها مذهولا ومتعجبا: إن التاريخ الإنساني كله كان من الممكن أن يتغير وأن يتجنب العالم ويلات الحرب العالمية الثانية لو كان الخلفاء المنتصرون على ألمانيا القيصرية في الحرب العالمية الأولى قد عملوا بنصيحة سورة النصر في محادثات فرساي1919 عقب انتهاء الحرب بهزيمة الألمان، ولم يستسلموا لشهوة الكراهية والرغبة في الانتقام من ألمانيا وإذلالها، مما بذر بذور الثأر في نفوس الألمان وأدى إلى بزوغ نجم هتلر واشتعال الحرب العالمية الثانية بعد عشرين عاما!

وأنت يا صديقي قد انتصرت بفضل من الله واستردت مالك، فلا تدع زهو النصر وغرور القوة يجرفانك إلى ارتكاب نفس الخطيئة التي ارتكبتها معك زوجتك حين أرادت أن تفرض عليك تلك التسوية الظالمة لما زعمته من حقوق لديك، وأغربها «ثمن الحرمان».. هذا، وخير ما تفعل هو أن تسرع بطي هذه الصفحة المؤلمة كلها من حياتك لتبدأ صفحة أخرى واعدة بالسعادة والأمان بإذن الله.. ولن يتحقق لك ذلك إلا إذا تخلصت من كل ذيول المشاكل المعلقة بينك وبين مطلقتك، وإلا إذا ترفعت عن شهوة الانتقام منها والإعسار عليها في نيل حقوقها المشروعة ومنازعتها فيها، فليس كالعدل حام للحقوق، ولا حافظ السلام الإنسان النفسي،

وكلما كانت تسوية أي نزاع عادلة خفت حدة الضغائن.. وفقد الخصوم أية دوافع للانتقام منا، فنحيا حياتنا في سلام.

فسبح بحمد ربك يا صديقي أن نصرك على من أرادت اغتصاب مالك وثمرة شقائك.. واستغفره من همس النفس الأمارة بالسوء لك بالاستسلام لشهوة الانتقام والامتناع عن أداء الحقوق، واحتفل بنصرك المبين بأن تخلص ضميرك من كل عبء عليه، فتتمتع بسلامة النفس، وتتهيأ لاستقبال السعادة التي ستعوضك بها الحياة قريبا بإذن الله.. وإذا كان لزوجتك السابقة عليك أية حقوق مادية عدا مؤخر الصداق والنفقة فلا تتردد في أدائها إليها وبالطريق الودي بعيدا عن المحاكم وعنائها، وثق أنك إن فعلت ذلك فإنك لا تريح ضميرك وربك فقط، بل وتنتقم أيضا من مطلقتك بإشعارها بفداحة الفارق بين قيمك الأخلاقية وقيمها، وبعمق خسارتها لك. والإمبراطور الروماني الحكيم ماركوس أورليوس كان يقول: إن خير ما ننتقم به ممن أساءوا إلينا هو ألا نصبح مثلهم.. وألا ننجرف إلى نفس صغارهم ودناياهم معنا. فافعل ذلك بلا تردد، وانتقم منها بألا تكون مثلها.. وترقب بعد ذلك تعويض السماء لك عما تكبدته من آلام، ولن يطول بك الانتظار حتى ترى بشائره بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شجرة اللبلاب

«إن الله يساعد أولئك الذين
يساعدون أنفسهم، ويحجب عونه
وتوفيقه عمن لا يساعدون أنفسهم
وينتظرون من الآخرين أن يقوموا
عنهم بكل شيء!».

أنا يا سيدي شاب في السابعة والأربعين من العمر، حصلت منذ ربع قرن على بكالوريوس التجارة، وفي نفس العام الذي تخرجت فيه توفي والدي - رحمه الله. وآل إلى بالميراث بعض الأطيان الزراعية في بلدة الأسرة بالريف، وبعض العقارات في القاهرة حيث أقيم، وبعض النقود السائلة بالبنك، وكان العائد المادي لكل ذلك. وما زال - كافيا للوفاء بمتطلبات حياتي التي لا تخرج عادة عن شراء الكتب الثقافية، والتنزه ليلا في الأماكن الراقية، والاستمتاع بطيبات الحياة المشروعة فيما لا يخالف تعاليم ديني.

ولقد عشت طوال هذه السنوات حياة الفراغ وحيدا في مسكني بأعلى عمارتي المطلة على نيل القاهرة، لا أنيس ولا جليس سوى سيدة مسنة تدير شؤون بيتي، وشغالة تحضر كل صباح لتنظيف الشقة وشراء المشتريات.. يومي كأمسي وكغدي لا اختلاف فيه ولا تجديد، أصحو من نومي في الرابعة من بعد الظهر لأبدأ «يومي» الذي لا شاغل لي فيه سوى القراءة والنزهة وارتياد المسارح ودور السينما والدردشة مع بعض الأقارب، والاستماع للإذاعات العالمية حتى تنهي إرسالها في الفجر، فأستسلم للنوم حتى عصر اليوم التالي وهكذا!

وقد أفقت لنفسي منذ بضع سنوات، فإذا بي أجد نفسي وحيدا في الحياة وكل إخوتي وشقيقاتي متزوجين ويعملون بمناصب براقة ويعيشون مع زوجاتهم وأزواجهم وأبنائهم الذين يحبونهم بالفطرة وليس بالأجر، كما يفعل من يتعاملون معي، فحسمت ترددي وقررت أن أتزوج، وأنجب الأبناء لتكون لى أسرتي الصغيرة كإخوتي، ولم أجد ما يمنعني من تحقيق هذه الرغبة؛ فأنا - والحمد لله - أمتلك كل مواصفات العريس المرغوب الذي تتخاطفه الأسر الكريمة، إذن فلا يبقى أمامي إلا أن أحدد «شروطي» في زوجة المستقبل، فحددتها في أن تكون فتاة صغيرة السن وجامعية وجميلة وجذابة ومثقفة، ورأيت هذه الشروط عادلة وليست مغالية، فأعلنتها لكل أقاربي ومعارفي، فلم يكن عسيرا عليهم أن يرشحوا لي كثيرات تتوافر فيهن هذه الشروط. وتقدمت لأول فتاة منهن، فإذا بها ترفضني هي وأسرتها بعد قليل، وتقدمت للثانية والثالثة والرابعة فإذا بكل من رشحهن لي الأقارب يرفضنني جميعا هن وأسرهن.. فهل تدري لماذا؟ لأنه ليس لى عمل محدد أقوم به في الحياة، ولأن كل دخلي يأتيني من إيراد ما ورثته عن أبي، والذي يديره ويقوم بتحصيل إيجاراته نيابة عني شقيقي الأكبر؟

فأي عيب في هذا يا سيدي؟

لقد تعجبت لرفض هذه الأسر مصاهرتي.. فتنازلت عن بعض شروطي، وتقدمت لفتيات مناسبات من حيث السن والثقافة والجمال ولكن من أسر أقل في المستوى الاجتماعي والمادي من أسرتي، فإذا بهن يرفضنني أيضا لنفس هذا السبب «العجيب» وهو أنني لا أعمل وأكتفي بإنفاق إيراد أملاكي!

فتساءلت: ما هذا «العمل» الذي تتمسك به كل الأسر الغنية والفقيرة وتسألني عنه؟ وقررت أن أخرج من قوقعتي وأنزل إلى معترك الحياة لأكسب مالا من عرق جبيني

لأول مرة، أو على الأقل لحين أتزوج، ثم ليكن ما يكون من أمري بعد ذلك.. فإذا بي أجد أنني قد تجاوزت منتصف الأربعينيات وليست لي أية خبرة سابقة بأي عمل جدي من قبل، إلى جانب مشكلة أخرى «بسيطة» هي أن كل الأعمال المحترمة تبدأ في الثامنة أو التاسعة صباحا، وأنا لا أصحو من نومي قبل الرابعة مساء.

وهكذا عرفت الوجه الآخر من «التعاسة» التي لا ترتبط بقلة الإمكانيات، والتي ذكرتني بما قرأته في ردودك من «أنه يبدو أن البشر أتعس كثيرا مما نظن»، وأنه «لن يستريح الإنسان إلا في قبره، مهما كان نصيبه من الفقر أو الثراء... »

فأنا الآن رجل وحيد في السابعة والأربعين من عمره.. لا يستطيع الزواج رغم توافر إمكانياته لديه.. ولا يستطيع العمل رغم شهادته الجامعية واستعداده لأن يتقاضى أجرا رمزيا أو حتى أن يتنازل عن أي أجر وها أنا أكتب إليك لتخرجني من دوامة التعاسة والوحدة والإحساس بانعدام الدور التي أعيش فيها الآن، وأسألك متحيرا: لماذا ترفض الأسر الطيبة. حتى الفقيرة منها - تزويج بناتها لشاب مستقيم حسن المظهر وهادئ الطباع وعلى درجة طيبة من الثقافة ولديه دخل حلال كاف لإعالته وإعالة أسرته في مستوى معيشة جيد؟ لماذا ترفض هذه الأسر شابا مثلي له هذه الظروف لمجرد أنه لا عمل له في بطاقته أنه حاصل على بكالوريوس التجارة؟

ولماذا ترفض أماكن العمل المحترمة قبولي للعمل بها ولو بمرتب رمزي - أو بلا أجر على الإطلاق - بشرط أن أذهب للعمل في المساء

كل يوم؟

إنني أرجو أن تشير عليّ ما أفعل لأكون إنسانا نافعا ومقبولا من الأسر الطيبة، وأرجو أن تترفق بي وألا تكرر على نصيحة الأهل والأقارب بأن أصحو في الصباح المبكر كل يوم وأنزل إلى نهر الحياة لأسبح فيه مع السابحين، لأني لا أستطيع ذلك حقيقة.. كما أرجو أيضا ألا تنصحني بأن أشغل نفسي بإدارة أملاكي ورعايتها وتنميتها بدلا من أخي الأكبر الذي يقدر على ذلك ولا أستطيعه أنا، لأنني شجرة اللبلاب تحتاج دائما إلى دعامة تستند إليها لتنمو ولا تستطيع أن ترتفع بغير هذه الدعامة، فأشر على ما تراه في صالحي وسوف أنفذ ما تشير به حرفيا إن شاء الله.. فماذا تقول لي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا أظن أنني سوف أشير عليك بشيء تستطيع تنفيذه حقا لأنك-وعفوا لصراحتي - تفتقر إلى شيء جوهري هام، هو الإرادة القوية المحركة للإنسان، والقادرة على تحويل أمنياته وأفكاره إلى خطوات عملية..

ولأن الأمر كذلك، فسوف أكتفى بتفسير ما يبدو لك «عجيبا» وغامضاً من حقائق الحياة، لعل لذلك يعينك. إذا استجمعت إرادتك - على الخروج من قوقعتك والنزول إلى بحر الحياة.

إنك تتعجب مثلا من رفض الأسر الكريمة. حتى الفقيرة منها ـ لشاب له مؤهلاتك المادية والعائلية والاجتماعية لمجرد أنه لا عمل واضحا له في الحياة، ويكتفي بإنفاق إيراده من ميراثه الذي يديره نيابة عنه شقيقه الأكبر.. وتفسيري لهذا «اللغز» هو أن السر في «اللبلاب» وليس في أنك بلا عمل محدد وتعيش على عائد أملاكك، فأنت - كما تعترف. لا تستطيع حتى أن تقوم بتحصيل إيجارات أطيانك الزراعية، ولا تقدر على إدارة أملاكك وتنميتها لأنك شجرة اللبلاب تحتاج دائما إلى دعامة تقيم عودها وتحول بينها وبين التداعي، والأسرة - أية أسرة - غنية كانت أو فقيرة تريد لابنتها «دعامة» تقيم ظهرها وتشاركها مسؤولية الحياة وتحميها من غوائلها، لا شجرة لبلاب تحتاج هي نفسها لما يقيم أودها ويحميها من السقوط.. فما وجه العجب في ذلك؟

ثم إنك قد حددت «شروطك» في عروس المستقبل، وكان أولها أن تكون فتاة صغيرة السن، وهذا يعني أنك تتقدم لفتيات يصغرنك بعشرين أو خمس وعشرين سنة في الأغلب الأعم.. فما وجه الغرابة في أن يرفضنك لهذا السبب وحده إلى جانب السبب الآخر الأهم وهو طبيعة اللبلاب المتمكنة منك؟

أليس عجبك هذا ذهولا آخر من جانبك عن حقيقة أساسية هامة من حقائق الحياة، وهي أنك كهل في السابعة والأربعين من العمر وقد فاتك قطار الزواج في سن الشباب ولا ينبغي لك أن تتطلع للارتباط إلا بمن تصغرك ببضع سنوات لا تزيد - إن زادت ـ على العشر؟

إن رفض الأسر الفقيرة لك رغم مميزاتك المادية لا ينبغي أن يثير عجبك أو يدهشك، لأنه دليل يرفع المعنويات. على أن سلم القيم في مجتمعنا ما زال معتدلا ولم ينقلب رأسا على عقب بحيث يصبح المال هو القيمة الوحيدة في الحياة، فالمال وإن تزايدت أهميته بالفعل عند التقييم إلا أنه لا يكفي وحده لانبهار أسرة طيبة فقيرة براغب في ابنتها ما لم يكن ملائما لها من ناحية السن والمواصفات الشخصية.

وعلى أية حال فإن حل مشكلة زواجك لا يستعصي عليك إذا اعترفت بحقائق الحياة وتنازلت عن طلب الحد الأقصى من الأشياء في شريكة العمر.. وقبلت بمن

هي أقرب إليك في السن وأقدر على شد دعامة ظهرك في مواجهة الحياة.

أما مشكلة العمل فهي وجه آخر من وجوه الانفصال عن الواقع الذي تعيش فيه، إذ أين هو مجال العمل اللائق بك والذي لا يفتح أبوابه إلا في الليل... اللهم إلا إذا كان ملهى ليلي أو مسرحا؟

نعم هناك أعمال يستمر العمل فيها ليل نهار وعاملون يعملون في الليل، لكنهم يعملون أيضا في الصباح في نوبات دورية، أو كلما تطلبت حاجة العمل ذلك، فكيف تتصور أنك تستطيع أن تتقدم إلى جهة عمل محترمة مشترطا عليها ألا تعمل إلا في الليل؟ وأي مبرر تستطيع أن تبرر به هذا المطلب؟ ولو سمعه منك أي صاحب عمل أو مسؤول لرفض عملك معه على الفور ولو دفعت أنت مرتبا شهريا لجهة العمل، إذ كيف يستطيع أي مسؤول عن عمل أن يثق في جدية إنسان يصارحه بأنه يريد عملا في الليل، فقط لأنه لا يستطيع - مهما حدث على ظهر كوكب الأرض - أن يصحو من نومه قبل الرابعة مساء؟

يا صديقي.. انس قضية العمل هذه، فأنت لن تعمل في أي مجال إلا إذا تخلصت من شلل الإرادة وفشل الروح اللذين تمكنا منك خلال سنوات الفراغ الطويلة التي أهدرت فيها زهرة العمر، ولو كنت جادا في العمل لعملت - وأنت خريج تجارة - كمحاسب في أحد مكاتب المحاسبة بعد الظهر.. لكنك في الحقيقة لا تريد عملا، وإنما لقبا ووظيفة شكلية.

والأفضل لك أن تبدأ بمحاولة تحمل مسؤولية نفسك وإدارة أملاكك وإعفاء شقيقك الأكبر من عبئها ولو بالتدريج، وربما تستطيع إذا نجحت في هذا الاختبار أن تسترد ثقتك في نفسك وثقة من حولك فيك، فيفتح لك ذلك مجالات عمل أخرى.. فابدأ ذلك وتخلص من عادات الفراغ الضارة، ومن قيمها وانعكاساتها السلبية على الشخصية، والتي أتصور أنها كانت في حساب من تخوفوا من مصاهرتك.. فالفراغ التام وانعدام الهدف في الحياة أخطر على الإنسان من المرض، لأنه يورث النفس ما يسميه المفكر الفرنسي مونتسكيو عجز الروح عن أن يحركها شيء أو يثير حماسها شيء، ومن آثاره أيضا المغالاة في الاهتمام بصغائر الأمور وتوافه الحياة واللجج في الخصومة، والحساسية المرضية تجاه ما لا يثير لدى المنشغلين بأمور الحياة الجادة أية حساسية، فضلا عن أمراض الوحدة والعزوبية المزمنة، ومن أهمها انحصار الاهتمام في الذات والعجز نفسيتا عن العطاء للآخرين، وإدمان ترقب أن يقدم الآخرون لهذه الذات كل ما ينبغي عليهم أن يقدموه لها من قرابين.

فتخلص يا صديقي من هذا الفراغ الضار، واشغل نفسك بشيء مفيد للحياة.. وما أكثر الجمعيات الخيرية وأعمال الخدمة العامة والتطوعية التي يمكن أن تستوعب طاقتك وتشغل أوقاتك إذا كنت حقا تريد أن تكون نافعا للحياة.. وقديما قيل: إن الله يساعد أولئك الذين يساعدون أنفسهم.. ويحجب عونه وتوفيقه عمن لا يساعدون أنفسهم وينتظرون من الآخرين أن يقوموا عنهم بكل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوجه البريء

»نهر الحياة سريع، ويجرف في
طريقه كثيرا من الآلام والأحزان
التي تجمدنا أمامها في بعض
الأحيان وتخيلنا أنها كالجنادل التي
لا يزحزحها التيار«.

لست أدري من أين أبدأ قصتي.. هل أبدؤها من حيث بدأت، أم من حيث انتهت؛ على أية حال فإني سأعود بك للوراء قليلا لتدرك كل الظروف المحيطة بمشكلتي.. فأنا شاب جامعي قاربت السابعة والعشرين من العمر، نشأت بين أبوين طيبين وأخ يصغرني بأربع سنوات، ومضت حياتنا في هدوء وسلام، وتقدمت في دراستي بلا مشاكل، وسعد أبواي بتفوقي ونجاحي، لكن أخي الأصغر لم تسمح له قدراته - للأسف - بتكرار تفوقي الدراسي، فلم يثر أبي – المؤمن بأن لكل إنسان نصيبه في الحياة - مشكلة بسبب ذلك، وإنما واجه الأمر بواقعية وساعد أخي في الالتحاق بمعهد تدريب صناعي، وأكد له أن الإنسان يستطيع أن يكون ناجحا ومحترما أيضا إذا مارس أي عمل يجيده ويتفوق فيه.

وتجاوزنا هذا الموضوع بلا منغصات، وسعد أخي بمعهده الجديد ودراسته العملية التي تناسب طبيعته، وتقدم فيه، وبلغت أنا السنة النهائية في كليتي العملية وبدأت أستعد لأداء الامتحان، وفجأة تزلزلت حياة أسرتي الآمنة الوادعة بكارثة لم تخطر لأحد على بال، واختطف مترو الأنفاق حياة شقيقي الوحيد وهو في السابعة عشرة من عمره في حادث بشع لا أريد استعادة ذكراه، وأصيبت أمي المسكينة بحالة من الذهول والتوهان لازمتها لفترة بعد الحادث المؤلم حتى كانت تطلب مني بعد رحيل شقيقي - رحمه الله - ألا أغلق باب الشقة في المساء بالمفتاح، لأن أخي سيرجع للبيت بعد قليل من عند أصدقائه، وحين طلبت مني ذلك لأول مرة طفرت الدموع من عيني ونظرت إليها حائرا ومشفقا لا أدرى بماذا أجيبها، فأنقذني أبي المؤمن بقضاء ربه وأشار لي أن أفعل ما تطالبني به أمي دون كلمة أو إشارة، فتعودت بعد ذلك كلما نبهتني إلى عدم إغلاق الباب بالمفتاح أن أستجيب لطلبها وأنا أدعو الله في قلبي أن يترفق بها.. وقد وقعت الكارثة قبل امتحاني بشهرين، فكدت أحجم عن دخوله، لكني، تمالكت نفسي، وأشفقت على أبي وأمي من مضاعفة آلامهما، وسلمت بإرادة الله - سبحانه وتعالى. وتأقلمت مع الظروف المؤلمة.. بل وشعرت أيضا بأنني مسؤول عن محاولة إدخال البهجة إلى قلبي الأم والأب الحزينين، فضاعفت جهدي في الاستذكار وحرصت على إرضاء أمي وتلبية كل رغباتها.. واستجبت لطلبها المؤلم الآخر أن أرتدي ملابس المرحوم أخي وبنطلونه وقميصه المفضلين، لكي تراني في صورته، وارتديت هذه الملابس رغم ضيقها الشديد عليّ لكي أسعد قلبها الحزين بأية لمسة سعادة، وذهبت لأداء الامتحان مرتديا ملابس أخي الضيقة لأنها طلبت مني ذلك صباح أول أيامه.. وإلى أن بدأت أمي - أعانها الله - تستسلم لقضاء الله

وقدره، وتسلم بأن أخي - رحمه الله - لن يعود في المساء، ولن يرجع في صورتي مهما ارتديت من ملابسه، فكفت عن ذلك، وسلمت بالواقع المؤلم.

ثم ظهرت نتيجة البكالوريوس، فإذا بي قد نجحت بتقدير جيد جدا وبترتيب متقدم ساعدني على الالتحاق بوظيفة حكومية على الفور، وكان نجاحي وعملي هو أول بارقة بهجة تدخل حياة أسرتي المظلمة بعد الرحيل، وكنت أنا قد تغيرت كثيرا بعد حادث أخي، والتزمت دينيا وواظبت على أداء فروض ديني، وراعيت تعاليمه في حياتي الخاصة دون تفريط ولا إفراط أو غلو، وقد بدأ هذا التغير في شخصيتي منذ شاركت في كل المراسم الحزينة لوداع أخي.. ومنذ نزلت معه إلى مثواه الأخير ورأيت ضيق هذا المثوى الذي سيحتوينا جميعا ذات يوم، كلاً في موعده المحتوم.

ورضيت أمي عن التزام الديني وراحت تحثني على الزواج لكي تسعد برؤية وليد لي يعوضها عن أخي الراحل، وشاءت الظروف بعد ذلك بشهور أن أرتبط بزميلة لي في العمل، وحدث توافق روحي عجيب بيننا، حتى شعرت بأن كلا منا قد خلق للآخر وحده، واستشرت أبي وأمي بشأنها، فرحبا بذلك وسعدا بسعادتي، وحددت مع فتاتي موعدا لزيارة أهلها.. وتوجهت إلى بيتها في الموعد المحدد وأنا سعيد ومبتهج، فإذا بوالدها يقابلني بجفاء شديد ولا يرحب بي، وانتهت المقابلة بأنه سيبلغني برده بعد يومين. ولم يتأخر رده، وكان الرفض القاطع لضعف إمكانياتي.. فتألمت لذلك، وأردت أن يكون ردي على ذلك عمليا، وكنت قد ادخرت من حصيلة عملي في، الإجازات الصيفية لعدة سنوات، ومن مرتبي من عمل الحكومي خلال عام، ومن مساعدات أبي مبلغا لا بأس به، فاشتريت شقة جيدة بأحد أحياء القاهرة، ورجعت إلى والد فتاتي وأبلغته بما فعلت وعرضت عليه أن أقدم شبكة مناسبة بعد بضعة شهور لأني قد استهلكت كل مدخراتي في الشقة، فرفض ذلك أيضا وبشدة، ومنع ابنته من العمل حتى لا تقابلني وأجبرها على الاستقالة، واحترنا ماذا نفعل.. وتواصل الوسطاء بيننا.. ورفضت أية فكرة لأن أرتبط بها على غير إرادة أبيها، أو أن أعرضها لغضب أسرتها عليها.. ورجعت للأب مرة ثالثة مناشدا إياه الرحمة بنا والاستجابة لرغبتنا، فرفض بإصرار واتهمني بأنني أجريت لابنته غسيل مخ لإقناعها بي، وأنه لن يوافق على زواجها مني مهما فعلت؛ لأنني غير جاهز وغير قادر على مطالب الزواج.

وبعد المرة الثالثة هذه وجدت أنني تحملت من إهانة الرفض الجارح ومن الجفاء الشديد في المعاملة ما يكفيني، فاستسلمت لليأس.. وازددت يأسا حين علمت أن عريسا شابا جاهزا قد تقدم لفتاتي وأنه عائد من الغربة ومستعد بكل الإمكانيات، وأنه قوبل بالترحيب من اللحظة الأولى.

وعقدت مقارنة ظالمة بيني وبينه في بيت أسرة فتاتي، فوجدت الأسرة أنه لا وجه للمقارنة بين هذا الشاب الجاهز الكامل وبين ذلك الشاب «الحالم» الذي ما زال يبدأ أولى خطوات الرحلة الطويلة، وراحت الأسرة تضغط على فتاتي لقبول الشاب الآخر اللائق والذي لا يمكن رفضه، وبدأ نداء العقل يفعل فعله فيها.

وفي هذه الظروف جاءتني فرصة للعمل بإحدى الدول العربية عن طريق قريب لي يعمل هناك.. فقررت السفر بغير أن ألزم فتاتي بالانتظار، لأن غربتي ستطول 3 سنوات على الأقل قبل أن أستطيع الجلوس على مائدة المفاوضات مع أية أسرة «لشراء» فتاة بمثل هذه الشروط المادية، وسافرت رغم قسوة ذلك على أبي وأمي اللذين لم يعارضاني في السفر بعد أن اعتصر الألم قلبيهما وهما يرياني أذوي صحيا وأفقد وزني وأرجع كل مرة من بيت فتاتي مهانا جريحا كسير النفس. وبدأت عملي في الغربة، وراجعت نفسي في وحدتي، فرأيت أنه من الظلم لفتاتي أن أفرق بينها وبين أهلها الذين يعترضون على شخصي وظروفي، فأرسلت إليها رسالة أطالبها فيها بالامتثال لما أرادته لنا إرادة الله، ودعوت لها بالسعادة في حياتها، ورجوت الله أن يعوضني عنها خيرا.

وحاولت أن أشغل نفسي بعملي، وبظروف حياتي في الغربة، وتزايد التزامي الديني فلم يمض زمن قليل حتى عرضت عليّ إحدى قريباتي المقيمات في نفس البلد عروسا قريبة لزوجها، وهي فتاة جميلة هادئة وذات وجه بريء وملتزمة دينيا، ووافقت على الفكرة، ورحبت الفتاة، والتقيت بها مرة واحدة، وبعدها تمت قراءة الفاتحة واتفقنا على ألا نتقابل بعد ذلك إلا في خلال الإجازة السنوية. وأراك الآن تبحث عن المشكلة في كل ذلك، فأقول لك:

إنني بعد أن أتممت هذا الاتفاق ما زلت أتذكر فتاتي الأولى في مصر في كل لحظة من يومي وليلي.. وقد كثر شرودي وسرحاني حتى كدت أتعرض لحادث تصادم في الشارع لولا لطف الله بي.. وسؤالي لك يا سيدي هو: هل ما أنا فيه هو مجرد ذكريات لحب حقيقي سوف ينتهي مع ارتباطي بالخطيبة الجديدة، أم أنه سوف يظل يطاردني ويفسد حياتي، فأكون بذلك قد ظلمت نفسي وظلمت من ارتبطت بها؟.. وكيف يستطيع الإنسان أن يتخلص من ذكرى إنسان.

آخر يشعر أنه يسري في دمه؟.. إن والد فتاتي في مصر لن يزوجها لي ولو أصبحت مليونيرا، ومع ذلك فذكراها لا تفارقني.. وخطيبتي صاحبة الوجه البريء الجميل تتوافر فيها كل مواصفات الزوجة المثالية، وبها كل المميزات العائلية والدينية والجمالية والخلقية.. لكني أخشى الفشل.. وأخشى أن أظلمها معي.. فبماذا تنصحني يا سيدي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه يا صديقي، ومع ذلك فالحياة تمضي بالجميع، سعداء وتعساء.. ونهر الحياة سريع الجريان، يجرف في طريقه كثيرا من الآلام والأحزان التي تجمدنا في بعض الأحيان أمامها وتخيلنا في غمرة معاناتنا لها أنها كالجنادل التي لا يزحزحها التيار، ومثلما صمدت لمحنة فراق الشقيق المؤلمة، سوف تصمد أيضا لإخفاق الحب وانهيار أول الأحلام.. وما أكثر مواقف الحياة التي بكينا أمامها ثم لم تلبث أن تكشفت لنا بعد حين عن خير عميم ادخرته لنا الأقدار.

وأنت في النهاية شاب قاربت السابعة والعشرين ولم تبلغها بعد.. وقصتك مع زميلتك السابقة في العمل مما يقاس بالشهور وليس بالسنوات.. ومشاعرك تجاهها في النهاية ليست أبدية.. ولن تتحدى قانون النسيان الذي لولاه ما طابت لأحد حياة.. بل لعلها لم تتعمق إلى هذا الحد إلا بتأثير الرفض والمقاومة من جانب أسرة فتاتك لارتباطك بها، كشأننا في بعض الأحيان حين لا يزيدنا الرفض إلا تمسكًا بالمفقود، ولعلنا لو نلناه بلا عناء لهان علينا بعض شأنه هوان اليسير والموجود على النفس البشرية التي تتعلق دائما بالصعب أو المفقود. وسواء كان هذا الأمر أو ذاك، فليس نهاية الحياة أن يصدم الإنسان في أولى تجاربه مع العاطفة.. أو أن يتعذر عليه أن يمضي بها إلى النهاية المأمولة، وإذا كنت قد اهتممت بمشكلتك هذه على غير عادتي في الاهتمام بهذه النوعية من المشاكل، فإنما قد فعلت ذلك تقديرا للظروف المأساوية التي سبقتها في حياتك وحياة أسرتك، وتقديرا أيضا للإحساس المؤلم الذي شعرت به وأنت تواجه الرفض والإنكار ثلاث مرات من والد فتاتك، وتستشعر العجز والمهانة وجرح الكرامة الإنسانية فيك، فليس أمر من أن يشعر الإنسان بالدونية والحرمان مما يراه حقه العادل في السعادة، لسبب لا حيلة له فيه هو قلة إمكانياته المادية.. غير أن تجربة العمر سوف تعلمك الكثير والكثير يا صديقي ولسوف تعرف أن كثيرين ممن ترفقت بهم الحياة ونعموا بالسعادة في حياتهم الخاصة قد حرموا هم أيضا في شبابهم من تصوروا أنهم لا حياة لهم بغيرهم، وأنهم يسرون في عروقهم مسرى الدم منهم كما تشعر أنت الآن تجاه فتاتك، ثم لم تلبث الأيام أن داوت جراحهم، وجمعتهم بمن سعدوا بهم، واستشعروا السعادة الحقيقية معهم.. وهيهات أن يستطيع أحد أن يجزم بأنهم كانوا سيسعدون بحياتهم نفس السعادة وسيحققون لأنفسهم ما حققوه من

آمال، لو كانوا قد ارتبطوا بمن حالت ظروف الحياة دونهم ودون الارتباط بهم في سنوات الشباب الأولى.

ونحن لا نعرف البشر في النهاية بغير أن تعاشرهم ونختبرهم بمحن الأيام ويختبرونا، وإذا كان الأديب العظيم مصطفى صادق الرافعي يقول: أغضب المرأة تعرفها أي تعرف شخصيتها الحقيقية التي تتخفى غالبا على عين المحب، فنفس الكلمة تنطبق أيضا على الرجل بنفس القدر، وتظل شراكة الحياة وتقلباتها واختباراتها هي محك التجربة الأوحد، وهي التي نستطيع أن نحكم بها على البشر بأنهم قد خلقوا لنا أو لم يخلقوا فلا تخش من ذكريات تجربتك السابقة على ارتباطك الجديد بصاحبة الوجه البريء، فهي إنما تلح عليك الآن لأن حياتك خاوية وليس في الساحة من يشغلك عنها بالرغم من ارتباطك الشكلي بالفتاة الجديدة، ولسوف يتغير الأمر كثيرا حين يتخذ ارتباطكما شكله الرسمي في إجازة الصيف.. ويتاح لكل منكما أن يكتشف الآخر ويتعرف عليه، فامنح صاحبة الوجه البريء فرصتها العادلة في أن تعرفها حق معرفتها وتعرفك.. ومهدا معا أرضكما المشتركة لاستقبال بذور الحب وإنباتها، فإن أثمرت هذه البذور زهورها، فلقد عرفت بالتجربة أن نداء الموجود أبقى وأقوى من نداء المفقود، وإن ضمرت

البذور، أو لم تنبت إلا الحسك والشوك، فمن عرف من لا يصلحون له فلقد عرف بطريقة خفية الصالح المنشود، وحق له أن يبحث عنه كما يقول أديبنا العظيم نجيب محفوظ، والبرهان دليل العقل يا صديقي كما يقول أهل المنطق، فامنح تجربتك الجديدة فرصتها العادلة من الزمن والاهتمام والرغبة الصادقة في إنجاحها.. ثم احكم عليها بعد ذلك بما تستحقه من حكم عادل بالاستمرار، أو التوقف.. مع تمنياتي لك بالسعادة وتحقيق الآمال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإحساس

«ليس للإنسان أن يحزن لخير أصاب الآخرين دونه، وإنما عليه أن يبتهج له أعزاؤه وأصدقاؤه فتكون نفسه الطيبة المحبة للخير والمطهرة من كل سوء هي خير شفيع له عند موزع الحظوظ والأرزاق».

منذ كنت طالبا بكلية الهندسة وأنا أقرأ لك، والآن قد جاء دوري لأن أكتب أول رسالة إليك بعد 13 عاما.. ومشكلتي باختصار هي أنني من أسرة طيبة المظهر والسمعة بمحافظة ساحلية، لكننا في واقع الأمر أسرة لا تملك شيئا. وبسبب هذا التناقض بين المظهر والواقع، فكثيرا ما نتعرض لمواقف محرجة، كأن يطلب أحد الجيران مساعدته في حل مشكلة مالية اعتمادا على سمعة العائلة ومظهرها.. فلا يجد لدينا شيئا يغيثه، أو كأن نواجه بعض الالتزامات في المناسبات الاجتماعية، فنقع في مأزق صعب، أو كما حدث لي حين تقدمت لإحدى زميلاتي في العمل، فصدمت هي حين تحدثت مع أبيها وعرف مني أنني - رغم أني أعمل منذ سنوات - غير قادر على توفير الشقة والأثاث والشبكة إلخ.. وكما كانت صدمة زميلتي في شديدة، فلقد كانت صدمتي أنا أشد لأنني قد تعريت أمام غرباء كانوا يظنون بنا ظنا أفضل.

وأصل المشكلة أننا سبعة إخوة، وقد اضطرت ظروفنا العائلية اثنين من إخوتي الشباب للزواج على أساس واحد، هو ألا تطلب العروس شيئا على الإطلاق من أحدهما لأنه لا يوجد ما يقدمانه لها.

وهكذا تم زواجهما رغم اعتراض أبي في البداية.. ومع أن متاعبي ترجع كلها إلى كثرة الأبناء كثرة غير طبيعية، فإني كلما نظرت إلى عيني أبي أرى فيهما حزنا عميقا، وينفطر قلبي حبا له وإشفاقا عليه، فلقد كافح هذا الرجل منذ نعومة أظافره وزوج نفسه بلا مساعدة من أبيه وإخوته، وكان يتمنى لو استطاع أن يجنبنا ما حدث له في شبابه، لولا ما قضت به المقادير، وعندما أحدثه عن عددنا الكبير وأسأله: لماذا يا أبي لم تفكر في مستقبلنا؟.. ينظر إليّ صامتا بعينيه الجميلتين ويتسلل الحزن الصامت إليهما، فتسارع أمي الحبيبة بالإجابة نيابة عنه: أمر الله يا ابني.. ولم نكن ندري أن الدنيا ستتغير على هذا النحو بهذه السرعة.. كما أنك أكبر إخوتك وكنا وما زلنا نأمل فيك أن تساعد إخوتك. فلا أكاد أسمع منها هذه الكلمات حتى يرق قلبي، وأسرع بإحضار القليل الذي ادخرته من مرتبي لأضعه بين يديها لتتصرف فيه كيف تشاء.. وهكذا مضت سنوات عمري حتى بلغت الرابعة والثلاثين.

وليس هذا ما أود أن أستشيرك فيه، وإنما أمر آخر.. هو هذا الإحساس الغريب الذي راح يتمكن مني شيئا فشيئا خلال الفترة الماضية، وهو الإحساس بالحزن الغامض الذي ينتابني كلما سمعت أن أحد أصدقائي قد خطب فتاة.. أو تزوج أو رزق بمولود.. وقد كنت في البداية أقاوم هذا الإحساس بشدة، وأحاول أن أتناساه وأذكر نفسي بالآية الكريمة {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا} صدق الله العظيم.. لكن هذا الإحساس راح يطاردني بإلحاح رغم ذلك، وأصبح يترك عليّ آثارا ظاهرة للعيان، فأجد نفسي حين يزف إليّ صديق نبأ خطبته لفتاة لا أفرح ولا أهج عليه لأقبله كما يفعل الآخرون، وإنما أجد ملامح وجهي تتغير رغما عني، ويهاجمني هذا الإحساس، وأنا أجاهد لكيلا يترك آثاره على ملامحي أو حديثي.

وقد تكرر هذا الموقف مرارا حتى أصبحت أتجنب مقابلة الزميل الذي سمعت أنه تزوج حديثا حتى لا يتجدد عذابي مع الإحساس الغامض ومحاولتي إخفاءه.

ولست أدري ماذا أستطيع أن أفعل لكي أرجع كما كنت، لأن مجرد إحساسي بأنني في طريقي لأن أكون إنسانا حقودا أو حسودا يقتلني، وعندما أختلي بنفسي فإني أصلي كثيرا وأبكي طويلا، وأشعر أحيانا بالضيق من أسرتي الضعيفة.. وفي أحيان أخرى أحس بأن موتي هو أفضل الحلول الممكنة لظروفي.

إنني أدعو الله كثيرا خوفا من أن أصبح حقودا أو معترضا على نعمة الله التي يرزق بها من يشاء.

فماذا أفعل لكي أتخلص من هذا الإحساس.. مع رجائي بألا تنصحني باستشارة أخصائي نفسي، لأن حالتي لا يعلم بها أحد سوى الله وسواك الآن؟.. وشكرا لك مقدما

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

هذا الإحساس الذي تعانيه وتتكتمه قد لا يخلو منه - ولو بدرجات متفاوتة. أي إنسان تحول ظروف اضطرارية - مادية أو غير مادية- دون تحقيقه لأحلامه في السعادة الشخصية.

فالإنسان يا صديقي قد فُطر على الاستعداد للرثاء لنفسه، على الإحساس بجدارته بأن ينال مثلما أتيح للآخرين من أسباب السعادة، وهو إحساس آخر مختلف تماما عن إحساس الحقد على هؤلاء الآخرين الذين فازوا دونه بما حرم هو منه، لأن الحقد إنما يعني تمن زوال نعمة الآخرين وسعادتهم، سواء نال مثلها من يحمل هذا الإحساس البغيض أو لم ينلها.

أما هذا الإحساس بالحزن الشفيف في موضع البهجة، فتفسيره هو أن شعور الإنسان بحرمانه مما يتمناه قد يتجدد حين يتلقى مثيرات خارجية ترتبط بأمانيه الشخصية، فتنبهه.. وتذكره بأحلامه الموءودة.

فإذا كانت هذه الأحلام تدور حول الزواج في حالتك، فمن الطبيعي أن تكون مناسبات الخطبة والزفاف والإنجاب هي هذه المثيرات.. فإذا كنت تحزن حين تسمع نبأ خطبة صديق لك، فأنت في الحقيقة لا تحزن لأن صديقا لك قد خطب فتاة أو ارتبط بها، وإنما تحزن لنفسك لأنك غير قادر للأسف حاليا على أن تحقق ما سمحت له ظروفه الاجتماعية بتحقيقه.. وهو إحساس بالرثاء للنفس بداخله شيء من الإحساس بالغيرة الشخصية المحكومة بالضوابط الأخلاقية والدينية، ولا يتجاوز هذا الإحساس المختلط حدوده إلى الحقد البغيض أبدا إلا لدى ذوي النفوس المظلمة التي تحاسب الآخرين عن أقدارها هي... بل وأحيانا عن سوء سلوكها الذي أعان أقدارها عليها، فإذا كان هذا الإحساس الذي تتحدث عنه شائعا بين معظم الفتيات متقاربات السن في مثل هذه الظروف، فهن لا يعانين كثيرا من آثاره النفسية السلبية عليهن لأنهن لا يخفينه ولا يتكتمنه، بل ينفسن عنه بالحديث مع غيرهن، فتخف آثاره الضارة عليهن، ولا يتجاوز حديثهن هذا التعبير الوقتي عن الأماني المماثلة، أو حتى استنكار أن تسبقهن أخريات إلى ما تأخر عنهن..

أما الجديد حقا فهو أن يكتب لي عنه شاب بعد كثرة ما قرأت عنه في رسائل الفتيات، وهذا في تقديري علامة صحة نفسية وليس العكس، ذلك أنه ليس من الصحة النفسية إنكار المشاعر والأحاسيس المخجلة التي ترفضها عقولنا ونكره أن يطلع عليها الآخرون، لأن ما يستنكره العقل الواعي ويرفضه من المشاعر والأفكار المخجلة، لا يتبدد في الهواء - للأسف - أو يفارقنا إلى غير رجعة، وإنما يؤدي رفض العقل الواعي وإنكاره لها إلى الضغط عليها بشدة حتى تنزل إلى دائرة العقل الباطن، فتكمن فيه وتتحين الفرص للخروج من محبسها في شكل تصرفات أو ردود أفعال غير مألوفة أو غير متوقعة أو غير مفهومة لنا.

لهذا فالأصلح دائما من الناحية النفسية هو أن نعترف بهذه الأفكار والمشاعر فيما بيننا وبين أنفسنا، وأن نعرضها مرة أخرى على عقولنا لنتفهمها ونحللها، وننزع عنها أشواكها ومحاذيرها بالتحليل المنطقي الذاتي والحوار العقلاني الهادي مع النفس، فيتبدى لنا فسادها وعدم جدواها. ولنبدأ مثلا بمناقشة العلاقة السببية بين هذا الإحساس الذي يهاجمك، وبين مثيراته الخارجية وهي نبأ خطبة صديق أو زميل لك.

إنك شاب طيب من أسرة طيبة حسنة السمعة.. لكن كثرة الأبناء ترهق عائلها وتغل يده عن تقديم المساعدة اللازمة لأبنائه في الزواج.. وقد ساهمت أنت بجزء مشكور من دخلك في تيسير حياة إخوتك والتخفيف عنهم.. فما هي العلاقة بين كل هذه الظروف غير المواتية وبين نبأ خطبة صديق؟

إن الرد المنطقي الوحيد هو أنه لا علاقة سببية على الإطلاق بين الأمرين، فهذا الزميل ليس مسؤولا عن ظروفك العائلية ولا عن برك بأبويك وإخوتك، وهو لم ينافسك على قلب فتاة وينتزعها منك..

فلماذا الحزن إذن لسماع نبأ خطبته؟!.. إن رد الفعل الطبيعي لمثل هذا النبأ هو التهنئة والابتهاج والأمل في الله أن تنال مماثلا لنصيبه من السعادة. ومؤكد أنك

كنت تفعل ذلك في البداية رغم ما يصاحبه من شعور عادي بالرثاء للنفس، لكن تكتمك للإحساس الطبيعي بالحزن الشفيف الذي ينبهه مثل هذا الخبر، وإنكار عقلك الواعي له وخجلك منه، قد أدى إلى تفاعله مع أشياء أخرى في عقلك الباطن، فبدأت تأثيراته في الظهور واضحة على ملامح وجهك، وفيما ينتابك من نوبات الضيق بأسرتك والسخط على ظروفها، حتى بلغ بك الأمر تخيل الموت كأفضل الحلول لمشكلتك.

ولست في حاجة إلى كل ذلك، وإنما أنت في حاجة فقط إلى الاستبصار الذاتي الذي تقوم من خلاله بتحليل هذا الإحساس وفهم دوافعه واكتشاف لامنطقيته.. ومن وسائل مقاومة هذا الإحساس ألا تتفادى أبدا مثيراته الخارجية، بل أن تضع نفسك في قلبها متحدياً هذا الإحساس الكريه، ومنكرا عليه أن يفسد عليك مشاعرك تجاه زملائك وأصدقائك، وهو ما يسميه علماء النفس بأسلوب «الغمر الانفعالي أو الشعوري».. بمعنى أن تغمر نفسك في الموقف الذي تتهيبه، وتستنفر إرادتك لمواجهته، فتكتشف بعد لحظات أنك قد تغلبت على مخاوفك تجاهه، وتصرفت التصرف الوحيد اللائق بك في مثل هذه الظروف.

أما الانسحاب والهروب فلا عائد لهما إلا تعميق هذا الإحساس السلبي ومضاعفة آثاره عليك، ومع أسلوب الغمر هذا.. تجيء ضرورة التمسك بالأمل، والاقتناع دائما بأن الأوضاع لن تستمر للأبد كما هي؛ لأن الحياة في تغير دائم، ولأن الصغير يبدأ صغيرا ثم يكبر ويحقق لنفسه كل ما تمناه لها.. وبالتالي فلابد أن تجد بغيتك من السعادة.. إن لم يكن اليوم فغدا.. فلكل إنسان دوره الذي يجيء عندما يحين الأوان.. ولكل إنسان من حياته ما يرضيه.. ومن نواقصه ما يتطلع إلى استكماله. فاستمر في برك بأبويك يا صديقي ولا تنس نصيبك من الدنيا.. وما أكثر الفتيات والأسر الكريمة التي ترحب بشاب طيب مثلك، مهما كانت ظروفه المادية.. فإذا كان الأمر كذلك فليس للإنسان أن يحزن لخير أصاب الآخرين دونه، وإنما عليه أن يبتهج لما يبتهج له أعزاؤه وأصدقاؤه... فتكون نفسه الطيبة المحبة للخير والمطهرة من كل سوء هي خير شفيع له عند موزع الحظوظ والأرزاق.. وخير بشير له باقتراب دوره في نيل السعادة وجوائز الحياة في أقرب فرصة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سرعة القطار

«من يهرول للحاق بالقطار وهو يتحرك ببطء استعدادا للانطلاق، تطالبه الحكمة بأن يتعلق بأول عربة يتاح له القفز إليها.. وألا يتردد طويلا في المفاضلة بين العربات المختلفة!»

أنا إحدى قارئات بابك الأسبوعي بانتظام، وأحتفظ بصفحاته لأعيد قراءتها أحيانا فتهون عليّ بعض متاعبي. وأنا آنسة في الحادية والثلاثين، خطبت وأنا في العشرين من عمري لشقيق زوج أختي.. وهو شاب ممتاز في كل شيء من ناحية المظهر والأخلاق والأسرة والتعليم الجامعي والوظيفة المناسبة، مع أن مؤهلي لا يزيد على دبلوم التجارة، وكان خطيبي بدينا بعض الشيء، ونتيجة لعدم خبرتي بشؤون الحياة في هذه السن الصغيرة، فقد اقترحت عليه أن يستشير طبيبا ويرتب معه ريجيما لتخسيس نفسه، وبسبب حبه الشديد لي فقد وافق على اقتراحي وذهب بالفعل إلى الطبيب الذي وصف له أقراصا للتخسيس راح يتناولها بالتزام وحماس لكي يفقد جزءا من وزنه ويرضيني، فإذا بخطيبي يصاب بعد فترة قصيرة بالفشل الكلوي وتتدهور صحته، وينتهي به الأمر إلى أن يعيش بالغسيل الكلوي مرتين كل أسبوع، وكانت هذه أول مرة أسمع فيها بمرض الفشل الكلوي وأعي خطورته، وبسبب إحساسي بالذنب تجاه خطيبي وشعوري بأنني قد دفعته إلى عمل الريجيم وتناول هذه الأقراص، فقد تمسكت بالوقوف إلى جانبه في محنته، ورفضت التخلي عنه، وانتظرته عشر سنوات كاملة وأنا أرتدي دبلته في إصبعي، واعتبرت نفسي السبب الأساسي لمرضه، فقد كان خطيبي في أتم صحة وأحسن حال حين خطبني، فدفعته لتخسيس نفسه بحماقتي ولم أكن - والله العظيم - أقصد أي أذى له، ولا كنت أعرف خطورة هذه الأقراص اللعينة ولا ما يمكن أن تتسبب فيه له من أذى، بل إني ألوم حتى الطبيب الذي وصفها له، وأتساءل: كيف تسمح الدولة بتداول أدوية خطرها أكثر من نفعها رغم التحذيرات المكتوبة عليها.

المهم أنني تمسكت بوقفتي إلى جانبه، فمضت السنوات من عمره ومن عمري بلا أي تغيير ولا أمل سوى تعذيب ضميري المستمر لي ـ

سامحني الله - إلى أن ازداد ضغط أسرتي على لفسخ الخطبة، فاستسلمت في النهاية لرغبتهم ولم أتركه إلا بعد غيابه عني لمدة ثمانية شهور، ولم يتأثر خطيبي عند إرسالي شبكته إليه، بل بدا وكأن شيئا لم يكن، فأحزنني برود رد فعله، ومرضت بعد خلع دبلته من إصبعي وفقدت ثقتي في نفسي، وأحسست بضياع العمر، وبأني لم، أعد مرغوبة من أحد، وإن كنت أطمئن عليه حتى الآن وأعرف أخباره من أختي المتزوجة من شقيقه. والحمد لله فقد اجتزت محنة الضيق وفقد الثقة في النفس بعد فترة، لكن أهلي مهمومون بأمري ويبحثون لي

دائما عن عريس، وقد تقدم لي حوالي خمسة رجال، لكني لم أوفق في اختيار أحدهم؛ فالواحد منهم إما أن يكون مطلقا ووراؤه مشاكل لم تنته بعد في المحاكم، وإما أن يكون في حاجة لفترة خطبة طويلة بسبب ضعف إمكانياته.. وأنا أخاف الانتظار إذ لم يعد يتسع العمر له.. وإما أن يكون مرفوضا من جانبي من الناحية النفسية ولا أستطيع مغالبة نفسي على قبوله.

ولست راغبة في الزواج لمجرد الزواج، وإنما أريد زواج الروح قبل زواج الجسد حماية للطرفين من الفشل، فهل أصبح الاستقرار صعبا بالنسبة لي إلى هذا الحد يا سيدي؟ أم أنه هو عقاب الله لي بسبب ما جنيته على خطيبي السابق بجهلي وعدم خبرتي بالدنيا؟...

إنني أسلم أمري لله.. لكن فرص الزواج تتراجع والعمر يتسرب من بين يدي، وليس لدي رصيد كبير من الجمال يصمد للزمن، وأسألك: هل أقبل أي إنسان لألحق بالقطار، أم أتمسك برأيي ولا أقبل إلا من أستريح إليه وآمل في نجاح زواجي منه واستمراره؟.. وهل تراني مسؤولة فعلا عما أصاب خطيبي السابق؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

الله وحده هو الأعلم يا آنستي بحقيقة رد فعل خطيبك السابق عند إعادة شبكته إليه بعد عشر سنوات من الخطبة والأمل في الشفاء والسعادة، فإذا كان قد أبدى بعض الجمود في المشاعر عند تسلمه لها.. فماذا يستطيع أن يفعل من يتلقى شهادة باليأس منه سوى أن يتظاهر بعدم الاكتراث لكيلا يضيف إلى معاناته مع أقداره الأليمة معاناة أخرى جديدة لا طائل تحتها؟

وإذا كان قد تظاهر بأنه لم يتأثر بفسخ خطبته بعد هذه السنوات الطويلة، فلأنه لم يود غالبا إيلامك ومضاعفة إحساسك تجاهه بالذنب، ولأنه حين تشتد بالإنسان المعاناة تستوي لديه للأسف كل الأمور، فلا يحزن لفقد ما ينبغي عليه أن يحزن له، ولا يحزن له، ولا يبتهج لما يثير الابتهاج في نفوس الهانئين الذين لم تختبرهم الحياة اختبارها القاسي له.

أما إحساسك بالذنب تجاهه فلا مبرر لمكابدته أو استمراره..

فلا أنت الطبيب الذي وصف له هذا الدواء.. ولا أنت الشركة التي أنتجته الاستخدامات معينة رغم خطورته، فأساء البعض استعماله في غير غرضه الأصلي.. ولا أنت الجهة المختصة التي صرحت بتداوله ولم تحذر منه الآخرين التحذير الكافي.. ولا أنت في النهاية قد اطلعت على ما سطر لخطيبك في اللوح المحفوظ ثم أغريته به رغم علمك بما ينتظره بسببه، وإن كانت هذه النقطة بالذات تحتاج إلى توثيق علمي يؤكد حقيقة الصلة بين هذا العقار وأمثاله، وبين الإصابة بالفشل الكلوي.

لا كنت هذه ولا تلك، ولا أحد يستطيع أن يجزم بأنه لم يكن ليصاب بما أصيب به حتى ولو لم تشيري عليه مشورتك الساذجة بطلب الرشاقة عن طريق العقاقير،

ولهذا فإنه يحق لك أن تقولي ما قاله أحد الصوفية في موقف مماثل: الخير أردت ولا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى ثم تعفين نفسك بعدها من كل لوم.. أو إحساس قاتل بالذنب.

أما تراجع فرص الزواج بالنسبة لك وتصورك في بعض الأحيان أن ذلك من عقاب الله لك، فإن الله جل شأنه أعدل من أن يعاقب أحدا على ما لم يقصده ويبتغيه، وإنما يحاسب الله العباد على ما اقترفوه عمدا واختيارا، وليس طلبا للخير أو توهما للمصلحة، فإنما الأعمال بالنيات يا آنستي لا بالنتائج ولا بالكوارث غير المتوقعة.

وأنت في النهاية لم تتخلي عن خطيبك فور إصابته بالمرض المزمن، شفاه الله وشفا أمثاله منه وعافاهم.. وإنما تمسكت بحبه ووقفت إلى جواره، ولم تخذليه في وفائك أو شهامتك بعد أسابيع أو شهور من مرضه، كما قد يفعل آخرون، وإنما تمسكت بالرغبة والأمل فيه عشر سنوات كاملة حتى استشعر هو الذنب تجاهك بإحساس الإنسان العادل مع الآخرين، وما كان انقطاعه عنك خلال الشهور الثمانية التي سبقت فسخ خطبتك له إلا تضحية مقصودة منه لإشعارك بأنه قد كفاك ما قدمت له حتى الآن من وفاء وانتظار، ولا بأس بك إن أنت استجبت لضغوط أسرتك عليك لفسخ خطبته، ولم يكن بكل تأكيد غائبا عن إدراك مثل هذه الضغوط وهو شقيق زوج أختك، فأراد في تصوري أن يعطيك (المبرر) النفسي لإعلان اليأس منه وإنهاء الأمل فيه بغير أن تحاسبي نفسك على التخلي عنه في محنته.

فأي تكفير أكبر من عشر سنوات من الانتظار، حتى لو كنت قد جنيت عليه عامدة متعمدة فيما أصابه من تصاريف القدر؟

إن عذاب الضمير والإحساس بالذنب هما العقاب الذاتي للمرء على ما يجنيه من أخطاء متعمدة في حق الآخرين.. وأنت قط لم تفعلي شيئاً عن سوء القصد.. فاغلقي هذه الصفحة نهائيا من حياتك وتطلعي إلى الغد بقلب متفائل ومؤمن بأحقيتك في السعادة.

ولست أطالبك في النهاية بقبول من ترفضينه نفسيا طلبا للاستقرار، لكني أطالبك فقط بإدراك حقائق الحياة والعمر، وبإبداء شيء من المرونة في تصوراتك وشروطك للزواج والسعادة في الحياة..

فمن يهرول للحاق بالقطار وهو يتحرك ببطء استعدادا لمغادرة الرصيف، تطالبه الحكمة بأن يتعلق بأول عربة يتاح له القفز إليها بأمان، وليس من الحكمة أن يتردد طويلا في المفاضلة بين العربات المختلفة أو أن يتمسك بألا (يتعلق) إلا بعربة الدرجة الأولى وحدها، فما أن يحاول الاقتراب منها حتى يكون القطار قد ضاعف من سرعته وفاتته فرصة الركوب نهائيا. ولا يعني ذلك أبدا أن نقبل ما لا يصلح لنا أو ما يرشحنا للعناء والتعاسة، وإنما يعني فقط ألا نتعفف عن تقديم بعض التنازلات عن شروطنا ومواصفاتنا الخاصة للسعادة..

لكي نفوز بفرص الأمان والاستقرار.. بدلا من أن نفقدها كلها لأننا تمسكنا من البداية بألا نقبل إلا بأفضلها وأجملها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الدوائر المتشابكة

«المغالاة الشديدة حتى في الفضائل الدينية والأخلاقية إلى حد الجور على حقوق الآخرين، شططٌ يخرج بهذه الفضائل من الدائرة الحميدة إلى دائرة الانحراف النفسي وظلم الآخرين»

أكتب إليك بعد أن ضاقت بي الدنيا من كثرة المشاكل التي تحيط بي فأنا سيدة في أواخر الأربعينيات من العمر توفي زوجي بعد 5 سنوات فقط من الزواج، وترك لي ولداً وبنتا وأنا ما زلت في شرخ شبابي، فاحتضنت أولادي ورفضت كل من تقدموا للزواج مني، وآثرت أن أتفرغ لأبنائي وأن أقدمهم للحياة بلا عقد نفسية بسبب زواج الأم أو معاملة زوجها لهم.. إلخ.

والحمد لله.. فلقد أديت الرسالة ومضت بي سنوات العمر بخيرها وشرها في سلام، وتخرج ابني في كلية مرموقة، وتزوج من إنسانة فاضلة من أسرة كريمة، وسافر مع زوجته للعمل في الخارج رعاهما الله، وتخرجت ابنتي وتزوجت من إنسان هادئ الطبع أمل أن تسعد بحياتها معه، وأستريح من معاناة القلق عليها وعلى ابني، فبدأ زواجها سعيدا بالفعل وواعدا بالراحة وهدوء البال، لكن ذلك لم يدم للأسف لأكثر من أسابيع، ثم بدأ زوج ابنتي يرجع من عمله كل يوم، فيتناول طعام الغداء مع زوجته، ثم يتركها في شقتها الواسعة وحيدة ويذهب إلى بيت أبيه الذي يعيش مع أمه في شقة صغيرة.. وتعيش أخته في شقة أخرى بنفس البيت، ويمضي اليوم كله عندهم من الظهيرة ولا يرجع إلى زوجته إلا بعد منتصف الليل.

وبالطبع فقد بدأت ابنتي تعترض عليه وتطالبه باصطحابها معه في زياراته اليومية لأسرته أو البقاء معها، فكان يستجيب لها مرة ويصحبها معه، ويرفض ذلك عشرات المرات، وإذا صاحبته في الزيارة لم يقض سوى وقت قصير مع أبويه ثم يصعد إلى مسكن أخته ليمضي الوقت كله معها ومع أبنائها. وكالعادة أحست ابنتي بالغيرة من اهتمام زوجها الزائد بأخته وأولادها على حساب اهتمامه بها، فحدثت بعض المشاكل، وشكت ابنتي من بعض كلمات أخته التي جرحت مشاعرها، فكان زوجها يدافع عن شقيقته دائما، وانتهى الأمر بأن قللت من زيارتها لها تجنبا للمتاعب. أما زوج ابنتي فقد واظب على نظامه اليومي بلا انقطاع: يرجع في الظهيرة ويتناول الغداء مع زوجته، ثم يتركها وحيدة ويذهب إلى بيت أخته وأولادها مهما كانت الظروف والأحوال، ويمضي المساء كله معهم حتى منتصف الليل. وقد تسألني: وماذا يفعل في بيتها كل هذا الوقت يوميا، وأجيبك بأنه في أيام الدراسة يذاكر لأبنائها دروسهم ويتابع معهم دراستهم، وفي أيام العطلة يلاعبهم الكرة والشطرنج وخلافه، وإذا قامت أخته بتنظيف البيت قام هو بغسل الموكيت ومسح الأرضية السيراميك نيابة عنها، ويساعدها في كل

شيء ويشتري طلباتها من الخارج، ثم يرجع إلى زوجته التي تجلس وحيدة في مسكنها معظم ساعات اليوم ويطلب منها إذا عاتبته أن تتعود على هذا الوضع، لأن هذه هي حياته وليس مستعدا لتغييرها، وإذا اعترضت عليه أو ذكرته بحقوقها كزوجة وأم وامرأة، قال لها: إنه يحب أمه ومرتبط بأخته ارتباط الدم الذي لا ينفصم، أما هي فلا يربطها به سوي ورقة الزواج الذي يمكن أن ينفصم في أية لحظة!

ويتشاجران ويختلفان.. فأقوم بالصلح بينهما، وأذكّر ابنتي بحقوق صلة الرحم وبر الأبوين لتخفف من لومها لزوجها، وأطالبها بالصبر إلى أن يكبر وليدها منه فيشغله بعض الشيء عن أبناء أخته ويرتبط به كما يرتبط بهم، وتمر الأزمة مؤقتا، إلى أن تتجدد مرة أخرى وأرجع للتدخل بينهما.

أما زوج الأخت فقد كان هو الآخر غير راض عن وجود شقيق زوجته بصفة دائمة ولمدة ثماني ساعات يوميا على الأقل في مسكنه وبين أولاده، وكان يشكو دائما من أنه يعيش غريبا في بيته وبين أولاده، ومن أن أبناءه مرتبطون بخالهم نفسيا وعاطفيا أكثر من ارتباطهم به، ومن أن شقيق زوجته هو الذي يربي أولاده أكثر مما يفعل هو معهم، لأنه شبه مقيم بينهم في حين لا يرجع هو من عمله قبل الثامنة مساء. وقد اختلف مع زوجته مرارا حول ذلك، فكانت تجيبه بمثل ما يجيب به شقيقها ابنتي، وتقول له: إنها ترتبط بشقيقها برباط الدم، أما هو فلا تربطه بها سوى ورقة أما الأبوان فيتفرجان على ما يجري أمامهما ولا يتدخلان في شيء!

واستمرت الحياة على هذا النحو ما بين يوم هادئ ويوم صاخب بالخلافات، إلى أن تشاجرت ابنتي وزوجها ذات يوم وانهارت صحيا وعصبيا ونقلت إلى المستشفى في حالة سيئة، وحين أفاقت من إغماءتها قالت: يكفيني هذا، ثم طلبت من زوجها الطلاق.

وحاولت قدر جهدي أن أهدئ من غضبها وأن أجعلها تعدل عن

طلب الطلاق رفقاً بطفلها الوحيد، ولكن بدون جدوى.. فلقد أصرت على الانفصال، وطلبت من زوجها ألا يزورها في المستشفى، وغادرته بعد أيام إلى بيتي وهي ذابلة وحزينة ومكتئبة، ولم تنجح الجهود في الصلح بينها وبين زوجها، وتم الطلاق بالفعل!

وعاشت معي ابنتي وطفلها كما كانت قبل الزواج، وظللت رغم الانفصال أحلم بأن يصلح زوجها من نفسه ومن أخطائه، وأن يسترجع زوجته بعد أن تكون قد هدأت أعصابها وواجهت الحياة كمطلقة وحيدة لفترة، وأشفقت على ابنها من أن يتمزق بينها وبين أبيه، وظل هذا الأمل يراودني في سريرتي ولا أصارحها به حتى لا تزداد عنادا، فإذا بشيء لم يكن في الحسبان يحدث فجأة ولا أستطيع أن أوقفه أو أمنعه، فلقد فوجئت بعد شهور بزوج الشقيقة - الذي كان يضيق بتدخل شقيقها في حياته. يزورني في البيت ويبلغني بأنه قد طلق زوجته بعد أن شعر بأنه لا وجود له في حياتها، وأنه قد عجز عن التفاهم معها، وترك لها الشقة والأولاد وكل شيء، ورجع للإقامة في شقة صغيرة له. وتعجبت لذلك، وهممت بأن أناشده

العودة لزوجته من أجل أطفاله، فإذا به يفاجئني بطلب يد ابنتي! وذهلت للطلب، ولم أستطع أن أقول له شيئا سوى أني سأبلغ ابنتي برغبته وأترك لها القرار، وانصرف شاكرا، ورجعت ابنتي فصارحتها بما حدث متعجبة له، فإذا بها تفاجئني هي الأخرى بقبول عرض زوج شقيقة زوجها دون تفكير ولا مهلة لمراجعة النفس ولا أي شيء!

ووقفت مذهولة وعاجزة عن فهم ما يجرى أمامي.. أو الاعتراض عليه، وتم الزواج بالفعل بعد أسابيع، وانتقلت ابنتي للإقامة مع زوجها الجديد تاركة لي طفلها الوحيد لأرعاه وأتولى تربيته عنها.

وانقطع بذلك خيط الأمل الذي تعلقت به، وهو أن ترجع المياه لمجاريها ذات يوم بين ابنتي وزوجها السابق؛ لينشأ ابنهما بينهما، وتبدد الأمل نهائيا حين علمت منذ أيام أن زوج ابنتي السابق الأحمق قد تزوج هو الآخر بعد أن نقل نفسه إلى مدينة ساحلية.. وأفاق بعد فوات الأوان من غيبوبة أخته التي دمرت حياته الزوجية الأولى..

وتعجبت.. ألم يكن من الأولى به أن يستعيد أم ابنه ويبتعد بها عن المشاكل في هذه المدينة الساحلية.. أو حتى في نفس مدينته!

أما أنا فقد تقدم لي يا سيدي رجل فاضل توفيت زوجته بعد زواج آخر أبنائه ويعيش وحيدا، وأرى أنه من حقي أن أعيش ما تبقى لي من عمري في سلام وفي كنف رجل فاضل.. لكن تواجهني مشكلة عسيرة هي: ماذا أفعل مع الولد الذي تركته لي ابنتي ولحقت بزوجها الجديد؟.. هل أرسله لأبيه ليعيش معه؟ وإذا فعلت ذلك كيف أضمن أن تعامله زوجته معاملة رحيمة؟.. أم هل أرسله لابنتي.. وزوجها هو عدو أبيه الأول الآن بعد زواجه من زوجته السابقة وطلاقه لشقيقته؟

ماذا أفعل يا سيدي؟.. لقد ترملت شابة وعشت زهرة عمري وحيدة وربيت أبنائي وسهرت وعلمت ورعيت.. وحرام أن أعيد هذا المشوار الطويل من أوله مع حفيدي هذا، ومن حقي أن أتنفس بعض نسائم الراحة في أخريات العمر.. والزواج استقرار ومودة ورحمة كما تعلم.. فبماذا تشير علي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا حدَّ لغرائب الحياة ولا نهاية لعجائبها!

إن من الأناشيد البوذية نشيدا غريبا تقول كلماته: افرحوا للأنباء السارة، فالحكيم بوذا قد عرف أصل الشر كله.. وهدانا للخلاص؟

ومع أني لم أفرح لأية أنباء سارة في رسالتك، فإني أتصور أني ربما أكون قد عرفت (أصل الشر كله) في هذه القصة المتشابكة الدوائر، وهو الشطط والتطرف

والخروج على جادة الاعتدال في كل شيء ولو كان من الفضائل! فبر الأبوين والحرص على صلة الرحم وحدب الشقيق على شقيقته والشقيقة على شقيقها، كلها من الفضائل الدينية والأخلاقية الحميدة، لكن المغالاة الشديدة فيها إلى حد الجور على حقوق الآخرين والتقصير في واجباتهم شطط يخرج بهذه الفضيلة من الدائرة الحميدة إلى دائرة الانحراف النفسي والعجز عن أداء المسؤوليات الطبيعية للزوج تجاه زوجته وأبنائه وللزوجة تجاه زوجها، لهذا فلقد قيل إن الاعتدال والوسطية مطلوبان دائما وفي كل الأحوال، ووسط الشيء لغويا هو خيره وأعدله، والوسطية من الفضائل الفكرية لأي إنسان عادل في رؤيته للحياة وتعاملاته معها، وأي انحراف عن هذه الوسطية بالتقصير أو بالمغالاة يتعارض مع العدل والاعتدال والفضائل الدينية والأخلاقية.

وزوج ابنتك الأول وشقيقته يا سيدتي قد غالى كل منهما في اهتمامه بالآخر واستحواذه عليه نفسيا وعمليا إلى حد الإضرار بحقوق شريك الحياة عليه، فشكت ابنتك من وحدتها ومن استغراق زوجها في حياة شقيقته وأولادها على حساب الاهتمام بها وبابنها، وشكا زوج الشقيقة من غربته في بيته، وإحساسه بأن أبناءه أكثر ارتباطا منه بخالهم، وأن زوجته أكثر اهتماما وإحساسا بشقيقها منه.

والخطأ الذي ارتكبه الشقيقان في حق شريكي حياتهما ليس في ارتباطهما الأخرى وتقاربهما الزائد في حد ذاته حتى ولو تخطي الحدود المألوفة، وإنما في افتقاد كل منهما للحكمة وللفهم الصحيح لمشاعر شريك حياته وغيرته الإنسانية الطبيعية من اهتمام شريك حياته بغيره بأكثر مما يهتم بأمره، مهما كان هذا (الغير) ومهما كانت صلته الإنسانية به. فالزوجة تحتاج لأن تشعر دائما بأنها محور اهتمام زوجها الأول في الحياة بغير أن يتعارض ذلك مع برِّه بأبويه وحرصه على علاقته بأسرته وأشقائه، والزوج أيضا يسعده دائما أن تشعره زوجته بأنه اهتمامها الأساسي في الحياة بغير أن يتعارض ذلك مع مشاعرها العائلية الحميمة تجاه أسرتها وأشقائها، ولا مع واجباتها تجاههم.

وزوج ابنتك وشقيقته لم يكتفيا فقط بالعجز عن فهم هذه المشاعر وتقديرها التقدير الصحيح وتدارك الأخطاء وفقاً لذلك، وإنما تجاوزا ذلك أيضا إلى استفزاز الطرف الآخر، فوضع كل منهما علاقته بالآخر في مواجهة علاقته الأخوية، وأشعره بأنه لا تربطه به سوي ورقة ما أسهل تمزيقها!

وما كان ينبغي لأحدهما أن يجعل منها علاقة مواجهة وتصادم، وهي في الحقيقة علاقة موازية يمكن أن تسير بسلام بمحاذاة العلاقة الأخوية والعائلية بغير صدام معها، فكانت النتيجة وبالا على الطرفين وعلى أبنائهما جميعا للأسف.

وفي ظلال هذه الشكوى المشتركة من جانب ابنتك ومن جانب زوج الشقيقة وإحساس كل منهما بإهمال شريك الحياة له لحساب علاقته الأخوية، نبتت بذور التفاهم الصامت بين ابنتك وزوج الشقيقة على أن كلا منهما ضحية للطرف الآخر، وحدث التقارب الذي يقع غالبا بين أصحاب التعاسة المشتركة، وعلى

طريقة والمصائب تجمعن المصابينا» كما يقول الشاعر العربي.. لهذا فقد فوجئت أنت يا سيدتي بزوج الشقيقة يتقدم إليك طالبا يد ابنتك..

وفوجئت أيضا بقبولها له دون تفكير ولا مراجعة للنفس. ولا عجب في ذلك رغم غرابة الأمر، لأنه في النهاية لم يكن مفاجأة إلا لك وحدك، أما هما فالمؤكد أن النار قد سرت تحت الرماد في ظل هذه الأجواء المواتية، وربطت بينهما لتزيد من تعقيد هذه القصة الشائكة ودوائرها المتشابكة.. إذ لا شك في أن ابنتك لو كانت قد ارتبطت بأي إنسان آخر في الوجود عدا زوج شقيقة زوجها السابق لكان ذلك في صالح طفلها وحقه العادل في أن يتنقل بين أبوين لا تفرق بينهما مثل هذه المرارة الغائرة في النفوس وغير القابلة للشفاء في المدى المنظور، ولكان ذلك أيضا أفضل وأصلح لأبناء تلك الشقيقة الذين فرضت عليهم الأقدار أن يتنقلوا أيضا ويتمزقوا بين أبوين يحمل كل منهما للآخر ضغائن غير قابلة للنسيان.. ليس بسبب الانفصال في حد ذاته؛ وإنما لأن الأب قد تزوج من زوجة خالهم السابقة من بين كل نساء الأرض!

إن التعريف العلمي للشذوذ عن المألوف هو أنه يعني اللجوء إلى البديل مع وجود الأصيل المتاح، والكارثة هي أن هذا الشقيق وشقيقته قد لجأ كل منهما إلى البديل النفسي له في الاهتمام بالآخر على حساب واجباته تجاه الأصيل المتاح، الذي كان ينبغي أن يتوجه إليه ببعض هذا الاهتمام. ومن هنا جاءت المشكلة التي يدفع الآن ثمنها. للأسف - أبناء الطرفين.

وها أنت يا سيدتي تساهمين بدورك في تشابك هذه الدوائر المعقدة بترددك أمام تكرار أداء نفس الرسالة التي قمت بها مع ابنيك مع هذا الطفل الحائر.. وتتساءلين ماذا تفعلين به، وهل تأمنين عليه في رعاية زوجة أبيه، أم في حضانة أمه وهي في كنف خصم أبيه اللدود؟

ولست في الحقيقة أنكر عليك حقك في الراحة بعد عناء الرحلة الطويلة، ولا حقك في أن تعيشي حياتك كما تشاءين في كنف رجل فاضل يرغب في الارتباط بك بعد أن أديت الرسالة.. لكني أتساءل فقط: لماذا ينسى كل الأطراف هذا الطفل الحائر وهم يخططون لحياتهم، فيتزوج الأب ويرحل إلى مدينة ساحلية، وتتزوج الأم من خصمه الذي لا يقبل الأب بانضمام ابنه إلى حضانته مهما كانت الظروف؟

وتفكر الجدة في الزواج بغير أن يكون لهذا الطفل مكان في حياتها الجديدة؟ نعم.. لماذا ينسى الجميع هذا الطفل البريء... ولماذا لم يفكروا في شأنه وهم يبدأون جميعا حياة جديدة؟

لقد تركه أبوه في رعاية أمه، وانتقل بعد زواجها لرعايتك أنت، وهذا يعني موافقته الضمنية على استمراره في رعايتك بغض النظر عما تتخذين من قرارات بشأن حياتك الخاصة، والمفروض أن ينتقل هذا الطفل إذا زهدت في رعايته بعد الزواج إلى حضانة جديه لأبيه، وهي التالية لك في أحقية الحضانة إذا أوصدت أبواب الرحمة في وجهه.

وسؤالي الأخير لك يا سيدتي هو: هل ستثقل عليك حقا رعاية هذا الطفل المعذب حتى لو تزوجت من ذلك الرجل الفاضل إذا قبل ببقائه معك أبوه؟ وهل يضير هذا الرجل الفاضل المرشح للارتباط بك وجود طفل خائف مرفوض من أبويه في كنفه وفي رعاية زوجته، وهو في النهاية لن يشغلك كثيرا عن واجباتك الجديدة.. ولن يحرمك شيئا من حقك في الاستمتاع بالحياة، بل ربما أضاف إلى حياتك البهجة والابتسامة.. وسوف يكون ذلك بالتأكيد قربي جديدة تتقربين بها إلى الله لكي يحفظ عليك سعادتك الجديدة؟

إنني لا أطالبك ولا ألزمك بشيء، فالفضل لا يطلب من أحد، وإنما ينبغي أن يجيء منه تطوعا.. فإذا كانت الإجابة بنعم.. فبها ونعمت، وإن لم تكن فلا مفر من انتقال هذا الطفل البريء إلى أبيه ليتحمل مسؤوليته عنه، سواء ضمه لأسرته الجديدة وراقب معاملة زوجته له، أو نقل حضانته لأمه، وشاركتها أخته - التي كانت سببا رئيسيا في تعاسة هذا الطفل - مسؤوليتها في رعايته وتعويضه بعض حرمانه.. والسلام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكتمان

»ليست المشاكل والصعاب هي
التي تصنع شقاء الإنسان، وإنما
مدى إحساسه بها! «

أكتب لك هذه الرسالة من إحدى المدن الساحلية لأستشيرك في أمر هام يخص أحد أفراد أسرتي.. فأنا مهندس في الثالثة والثلاثين من العمر، والذي يعمل بوظيفة حكومية، ووالدتي ربة بيت متعلمة، ونحن أربعة أشقاء.. ولدان وبنتان، وأنا أكبر الجميع، وقد أنهينا جميعا. والحمد لله. تعليمنا في كليات القمة. وأسرتنا متوسطة الحال، ويغلب عليها الطابع الديني السمح الذي لا يعرف التزمت.. أما المشكلة فهي تخص شقيقي الذي يصغرني بعامين، وهو شاب دمث الخلق، متدين وخجول وحساس ويتسم بالوسامة ونقاء الروح والمرح، وقد أنهى دراسته الثانوية بتفوق والتحق بإحدى الكليات العملية، وحين قارب التخرج فيها بدأت الأسرة تتحدث في أمر زواجه وترشح له أكثر من فتاة مناسبة من العائلة أو من المعارف، لكنه أخبرني - وهو سعيد - بأنه مرتبط عاطفيا بزميلة له في الكلية، طيبة ومتدينة ورقيقة ووجهها هادئ ومريح، وتمثل له كل ما يتمناه في شريكة حياته، كما أنها تبادله الإعجاب والاهتمام، وينتظر انتهاءه من امتحان البكالوريوس ليتقدم لأسرتها رسميا، وكان يحدثني عنها بسعادة وابتهاج، فسعدت بسعادته وتمنيت له التوفيق في حياته، وجاء الامتحان ونجح شقيقي فيه، وتخرج والتحق بوظيفة حكومية، لكنه لم يفاتح أبي وأمي في موضوع ارتباطه كما توقعت، وسألته عن السبب في ذلك، فأجابني بصوت يغلب عليه التأثر بأنه قد صرف النظر عن هذا الأمر لأنه تبين له أنه وفتاته لا يصلحان أحدهما للآخر. وتصورت أن خلافا قد وقع بينهما وانتهى بالفراق، فأسفت لذلك وتمنيت له التوفيق مع غيرها في المستقبل، وكنت قد تخرجت قبل عامين وعملت بإحدى الوظائف، وتزوجت مستعينا بمساعدة أبي، وبعد سنوات تخرجت شقيقتاي وتزوجت كل منهما.. أما شقيقي فقد شغل بعمله وأكمل دراسته العليا فحصل على الدبلوم ثم الماجستير، ولاحظت عليه أنه يمضي يومه بين العمل والقراءة والصلاة وتلاوة القرآن الكريم وأداء الواجبات الاجتماعية، أو سماع الموسيقى وممارسة رياضة المشي. وبسبب دماثة خلقه وسلوكه المهذب فلقد حظي بحب الجميع دائما، ورحبت أسر كثيرة بمصاهرته، ولست أقول ذلك تأثرا بصلة الرحم معه، وإنما لأنها حقيقة مجردة ويلمسها الجميع، حتى أنني كنت أحيانا أشعر ببعض الغيرة الخفيفة منه لكثرة الترحيب والثناء الذي ينهال عليه من الآخرين كلما اجتمعنا معا في بعض المناسبات الاجتماعية أو العائلية.

ورغم كل ذلك فلقد وجدته لا يرحب بحديث الأسرة عن زواجه وبما تعرضه عليه العائلات من ترحيبها بارتباطها به، وكلما عرضنا عليه فتاة من فتيات هذه الأسر أجاب بحياء إنها فتاة ممتازة وأسرتها طيبة لكنها للأسف لا تناسبه، ثم يغير الموضوع ويتجنب الخوض فيه مرة أخرى. وقد كنت وما زلت من المعجبين ببريد

الجمعة، وكذلك أخي، وكثيرا ما تشاركنا في الحديث عما يعرضه من صور إنسانية صادقة لحياة البشر، وتألمنا لما يصيبهم من أحزان، وسعدنا بلحظات الفرح التي تأتيهم بعد الشدة، فلفت نظري منذ شهور شيء هام يتعلق ببريد الجمعة وبشقيقي معا.. فقد حدث أن قرأت في بابك مشكلة شاب يتمتع بكل الصفات والمزايا الطيبة التي ترشحه للزواج من أفضل الفتيات، لكنه اكتشف للأسف وبطريق الصدفة أنه غير قادر على الإنجاب.. فلفت نظري بشدة أن شقيقي قد اهتم بهذه القصة اهتماما غير عادي وأنه أعاد قراءتها عدة مرات، وكلما قرأها ازداد تأثره بها، واغرورقت عيناه بالدمع، كما لفت نظري أيضا أنه يطيل السجود في الصلاة كأنه يناجي ربه ويدعوه دعاء حارا متصلا.. وهذا هو حال أفراد أسرتنا عند شعور أحدهم بالحزن والهم ثم حدث بعد ذلك أن تحدثت قريبة جامعية رقيقة إلى زوجتي بلا مواربة عن إعجابها بأخي وكيف أنها تتمناه لنفسها، ونقلت زوجتي هذا الحديث إليّ، فحدثت شقيقي عنها، فأجابني إجابته المعهودة، وألححت عليه بالأمر فراح يتعلل بأعذار غير مقنعة، وازداد إلحاحي عليه بأن يصارحني بما أشعر بأنه يخفيه عني، إذ ما قيمة الإخوة إذن إذا كان كل منا سوف يحتفظ بهمومه لنفسه ولا يتخفف منها بإشراك أخيه فيها؟.. فبدأ بعد عناء شديد وبعد تعهد مني بكتمان ما يصارحني به، يحكي لي أنه قد اكتشف بمحض الصدفة وهو يستعد لإنهاء دراسته الجامعية، أنه غير قادر على الإنجاب، وإن كان قادرا على الزواج بالطبع، فصدم بهذه الحقيقة صدمة شديدة زلزلت كيانه، وأحجم عن التقدم لزميلته التي كان يتمنى الارتباط بها، وكتم سره عن الجميع خاصة أبي وأمي تخوفا من إيلامهما، ثم استعاد ثباته بعد فترة وسلم أمره لله وتفرغ لعمله وحياته صارفا النظر عن الزواج والارتباط. ولم تدهشني القصة التي تتكرر كثيرا في الحياة في حد ذاتها، بقدر ما أدهشتني قدرة شقيقي على الكتمان، والانفراد بمشكلته حوالي عشر سنوات طويلة دون أدنى مشاركة له فيها من أقرب الناس إليه. ومع أني أعلم من خبرة الحياة وقراءة مشاكل المهمومين في بابك أن مشكلته قد تهون إلى جوار مشاكل أخرى كثيرة في الحياة، إلا أنني أعلم أيضا أننا نتخلص من نصف إحساسنا بالمشكلة بمجرد الحديث عنها مع من نثق فيهم ونرتاح إليهم.

وقد تحدثنا طويلا في المشكلة، والواضح لنا من خلال مناقشاتنا أن هناك عدة اختيارات وحلول لها، وأن أفضلها - كما يقول شقيقي وأنسبها إليه هو أن يتزوج من فتاة تناسبه اجتماعيا وثقافيا وخلقيا وتتشابه ظروفها مع ظروفه، أي أن تكون قد اكتشفت أيضا بطريق الصدفة أنها غير قادرة على الإنجاب، وهو حل مثالي لمشكلته، لكنه من الصعوبة بمكان أيضا، لأنه لا يستطيع - كما قال لي - أن يحدث كل فتاة يراها مناسبة له عن ظروفه الشخصية ثم يسألها عن ظروفها.. والاختيار الثاني هو أن يرتبط بسيدة سبق لها الزواج ولم يستمر زواجها لعدم قدرتها على الإنجاب، والثالث هو أن يتزوج مطلقة أو أرملة لها أطفال ولا تحتاج إلى مزيد منهم.أما الزواج من زميلة أو قريبة عن حب وإعجاب يدفعانها إلى تفهم ظروفه والتضحية من أجله بأمومتها، فهو حل بالغ الرومانسية - كما يقول شقيقي لأنه مع استمرار الحياة قد تشعر الزوجة بالحنين للإنجاب أو يشعر شقيقي بثقل جانبها

وظلمه لها، فتتعقد الحياة بينهما، وهكذا فإنك ترى أن الأمر في النهاية وفي كل الأحوال إنما يعتمد على المصادفة إلى حد كبير، والتي قد تحدث اليوم وقد تتأخر سنوات.

إن شقيقي يردد أمامي دائما أن ما أصابه إنما هو ابتلاء من الله واختبار لإيمانه، ويتحدث عن ذلك باقتناع وابتسامة راضية، ويؤمن التضحية من بأن الله سوف يهديه إلى ما فيه صلاح أمره في الوقت المناسب.

فما رأيك في كل ذلك يا سيدي.. وهل ترى له حلا غير هذه سيدي الحلول والاختيارات التي قتلناها بحثا خلال الفترة الأخيرة.. وكيف ننفذها إذا أردنا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ليست المشاكل والصعاب هي التي تصنع شقاء الإنسان، وإنما مدى إحساسه بها، فالإنسان قد يكون محاطا بالمشاكل من كل جانب حتى ليتعذر على من يلاحظه أن يتصور كيف يستطيع تحملها، لكنه رغم ذلك قد يعيش حياته آمنا.. وراضيا، لا لأن حياته قد خلت من المشاكل، وإنما لأنه لا يكاد يحس بها.. أو لأن إحساسه بها ليس عاليا ولا عميقا ولا يحول دون قدرته على مواصلة الحياة والاستمتاع بها. وقد يكون الإنسان على الناحية الأخرى مغبوطا من الآخرين على حياته وما أتيح له من أسباب للاستمتاع بها، لكنه يشعر شعورا حادا ببعض نواقصه أو ببعض مشاكله العادية التي لا تخلو منها حياة، فيفسد عليه هذا الشعور المرضى قدرته على الاستمتاع بالحياة أو حتى على القبول بها. وهكذا فإن عمق الإحساس بالمشكلة هو الذي يصنع شقاء الإنسان بها وليست المشكلة في حد ذاتها.

وتكتم شقيقك لمشكلته حتى عن أقرب الناس إليه طوال عشر سنوات، يعكس حدة إحساسه بها ومعاناته معها، ولا شك أنه قد أخطأ كثيرا في حق نفسه بهذا الكتمان الذي يضاعف من إحساسه بمأساوية ظروفه، ويحصره في دائرة مشكلته بلا أية محاولة للتخفف من آلامه بالحديث عنها مع أقرب الناس إليه، أو بممارسة وظيفة الإفضاء النفسية الضرورية التي تساعد المهموم على التخلص من بعض البخار الجاثم على الصدر كالحجر الثقيل.

والشاعر العربي القديم يقول:

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة فيواسيك أو يسليك أو يتوجع

و(رجل الأقدار) نابليون بونابرت الذي ساد أوروبا في مطلع القرن التاسع عشر وكتب عنه المؤرخون أنه كان يلهو بتيجان ممالكها كما يلهو غيره بقطع الشطرنج، رجل الأقدار هذا قد أُثِرَ عنه قوله:

أنا أضعف من أن أكتم آلامي الشخصية.. أو أحتفظ بها لنفسي وحدي!

ووظيفة الإفضاء ليست مجرد تنفيس عن البخار المكتوم بهدف التخفف من وطأة الألم، لكنها تؤدي وظيفة أخرى لا تقل أهمية عن ذلك، هي الإسهام في إكساب المهموم النظرة الموضوعية الضرورية لمشكلته. فاستسلام الإنسان لميله الغريزي للرثاء للنفس قد يضخم من حجم مشاكله ويوهمه أنها مشاكل أسطورية لا قِبلَ لأحد بها، في حين يتيح له الإفضاء بها والحديث عنها مع الآخرين أن يعرف آراء من ينظرون إليها من خارج الدائرة، وتكون أحكامهم عليها غالبا أكثر واقعية ممن يعانيها ويتكبدها.

ثم كيف يتلمس الإنسان في النهاية حلا لمشاكله إذا كان لا يبوح بها لمن يهتمون بأمره ويستطيعون مساعدته في مواجهتها؟.. وفي حالة شقيقك فلا شك أنك وشقيقتيك كان من المحتمل أن ترشدوه إلى بغيته خلال السنوات العشر الماضية، لو كنتم قد عرفتم عمق مشكلته ونوعيتها، لكنه كلف نفسه عنا شديدا بانفراده بهمه وحده وتكتمه له..

إن هناك نوعا من مشاكل الحياة لا مفر للإنسان من أن يتعلم كيف (يعيش بها). وهذا التعبير الأخير قد بدأ يتردد بكثرة في السنوات الأخيرة في مصطلحات طب النفس العلاجي في الغرب، ومفاده أنه من مشاكل الإنسان ما لا يجدي معه أي حل سوى أن يدرب الإنسان نفسه على احتمال الحياة بل والاستمتاع بها أيضا، مع وجود هذه المشاكل في حياته وتسليمه بها، وهذا أيضا ما ينبغي لشقيقك أن يوطن نفسه عليه ويتكيف معه، والبدائل التي قتلتماها بحثا لحل مشكلته هي البدائل الوحيدة المتاحة فعلا لمواجهتها، وهي بترتيب الأفضلية تأتي كما أوردتها في رسالتك تماما، والحياة من حولنا مليئة بمن تناسبهن ظروف شقيقك، وسوف يجدن فيه البلسم الشافي لجراحهن، لكن المشكلة حقا هي أن يعرف كل طرف بغيته لكي يسعى إليها، خاصة مع حالة التكتم التي يحيط بها البعض ظروفهم الشخصية المماثلة كأنها (عار) لا ينبغي أن يطلع عليه أحد، أو كأنها ظروف إرادية اختاروها لأنفسهم بملء إرادتهم ثم خجلوا بعد ذلك من أن يطلع الآخرون على (سوء اختيارهم).

وبهذه المناسبة فلقد تناقشت مع أكثر من طبيب مختص حول حالات مماثلة لحالة شقيقك أتيح لي الاقتراب منها في الفترة الأخيرة، ولفتت نظري بكثرتها النسبية، ففهمت منهم أن بعض حالات عجز الشباب عن الإنجاب إنما ترجع إلى عيب خلقي بسيط يولدون به، وإنه لو لوحظ هذا العيب في طفولتهم وقبل إدراكهم سن البلوغ، فإنه يعالج بسهولة بإجراء جراحة سهلة ومأمونة تحقق لهم القدرة على الإنجاب، أما إذا تأخر اكتشافه إلى ما بعد سن البلوغ؛ فإن الجراحة لا تجدي في علاجه، ومن هنا تأتي أهمية اهتمام الأبوين بملاحظة كل كبيرة وصغيرة في وليدهما والمبادرة بعرضه على الطبيب المختص عند الاسترابة.. في أي شيء.

فلعل شقيقك قد علم بهذه الحقيقة بشكل أو بآخر خلال بحثه عن علاج لمشكلته لدى الأطباء، ولعل ما علمه من هذا الأمر قد أرهف، إحساسه تجاه أبويه ودفعه لأن يتكتم همه عنهما تحسساً من إيلامهما أو إشعارهما بأي تقصير غير متعمد تجاهه، ولا شك أنه إحساس نبيل يشهد له بسمو الخلق ونقاء السريرة، ويؤهله

بحق لكل ما وصفته به، من صفات رفيعة، ويرشحه لكل خير في الحياة..
وللسعادة مع من سوف تختارها له العناية الإلهية في أقرب وقت بإذن الله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأمل الأخير

«يسخر من المجروح، من لا يعرف الألم، أو من يضمن أن ينجو منه في قادم الأيام، وليس هناك من لم يعرف الألم ولا من يضمن نجاتَه منه في أية مرحلة من العمر!»

هذه هي رسالتي الثانية إليك، فقد أرسلت إليك رسالتي الأولى منذ أكثر من شهرين، وطال انتظاري لرأيكم فيها.. فهل حالي مع بريدكم كحالي مع الأيام؟

لقد قرأت رسالة «الكتمان» التي كتبها قارئ عن شقيقه الشاب الذي يتهرب من الزواج لأنه قد اكتشف بطريق المصادفة أنه غير قادر على الإنجاب، وتكتم همه طويلا حتى باح به لشقيقه الوحيد بعد إلحاح شديد منه، وقد قرأت ردكم الجميل عليه وقولك له إن الإفضاء بهمومنا قد يخفف عنا في كثير من الأحيان بعض آلامنا وأحزاننا، وقد نتوصل من خلاله إلى بصيص من الأمل في حل مشاكلنا.. إذ كيف يساعدنا الأعزاء على حلها وهم لا يدرون بوجودها أصلا؟

وأنا أتفق معك في هذا الرأي، لكن لي إضافة (مؤلمة) له من واقع تجربتي الشخصية، وهي أن الإفضاء قد يحقق ذلك في كثير من الأحيان حقا، لكنه في أحيان أخرى قد لا نجني منه سوى التهكم والسخرية ومضاعفة آلامنا وإحساسنا بالعار.. إذا كانت المشكلة التي نعانيها قدرية ولا ذنب لنا فيها. فأنا يا سيدي شاب أقترب من الرابعة والثلاثين من العمر، وقد كان عمري عامين فقط حين هجر أبي البيت وتزوج بامرأة أخرى وتخلى عن جميع مسؤولياته عنا، فعشت أنا وأمي وإخوتي نعاني الفقر والحرمان حتى مضت السنوات القاسية بخيرها وشرها، وحصلت على الثانوية العامة، ثم التحقت بمعهد فوق المتوسط وحصلت على شهادتي، وتزوج أخي الأكبر، ثم تزوجت شقيقاتي زيجات بسيطة كحالنا، ولم يبق في بيت الأسرة سواي وأمي التي عانت في حياتها الكثير وتحملت الكثير واختزنت المعاناة، حتى إذا ما التحقت بالخدمة العسكرية، انهارت مقاومتها فجأة وأصيبت بالاكتئاب النفسي، وأصبحت لا تدري شيئا عما حولها ولا تدري أبسط الأشياء، ثم اختارت أن تنهي حياتها بيدها في حادث مروع ما زال يدمي قلبي حتى الآن، وبعد رحيلها عن الحياة بفترة قصيرة - رحمها الله وعوضها في جنان السماء عما عانت في الدنيا من حرمان وآلام - توفي أخي الأكبر في حادث أشد إيلاما، وقد كان عوني وسندي الوحيد في الحياة.. رحمه الله وأثابه موفور الثواب، وقد وقع الحادثان الأليمان وأنا ما زلت أؤدي خدمتي العسكرية، فخرجت منها لأجد نفسي وحيدا بعد فراق الأحباب، لا يؤنس وحدتي سوي حزني عليهما ودعائي لهما، وعملت في مهنة شاقة لا يحتملها جسدي النحيل.. وعشت بمفردي في البيت بلا أنيس يشاركني حياتي أو يلبي لي احتياجاتي اليومية بعد عودتي من العمل الشاق، وتناسيت فكرة الزواج تماما نظرا لظروفي المادية، إلى أن حدثتني

إحدى شقيقاتي منذ عام عن فتاة من معارفها، فصارحتها بما تعلمه جيدا عن أحوالي المادية وعدم قدرتي على تكاليف الزواج، لكنها فاجأتني بأن أهل الفتاة يعرفون كل شيء عن ظروفي ويقبلون بها، فراجعت نفسي طويلا، وانتهيت إلى قرار بالارتباط بهذه الفتاة لما أعرفه من أخلاقها الكريمة. وتم التعارف بيننا، ثم تمت الخطبة أيضا، ووجدت في فتاتي ما عوضني عن ظروفي وأحزاني، فكانت إنسانة رقيقة وطيبة القلب ومتفهمة لظروفي، وازداد تعلقي بها وتعلقها بي، ولم تدخر وسعا في إشعاري بسعادتها، لارتباطها بي، فشعرت بأنني أخرج من دائرة الأحزان وأعود للتفاؤل بالحياة من جديد.

لكني رغم ذلك كنت أشعر بشيء أتوجس منه وأخشاه وأظنه من أثر الإرهاق والعمل الشاق، فذهبت للطبيب لأتأكد منه، وأجريت التحاليل والاختبارات المختلفة، فإذا بي أعرف أنني لن أستطيع الزواج على الفور لأنني لن أقدر على القيام بواجباتي الزوجية، وأكد الطبيب أنني بعد العلاج سأعود إلى حالتي الطبيعية بإذن الله، فواظبت على العلاج وقلبي مثقل بحزن مكتوم لا أستطيع البوح به لأحد، وأنفقت كل ما كان معي من مدخرات على العلاج بلا فائدة، وأخبرني الطبيب أن أمامي مرحلة أخرى من العلاج، لكني وجدت أن إمكاناتي لا تسمح لي بالاستمرار فيه؛ فتوقفت صاغرا، ووجدت نفسي أواجه وحيدا أبشع ما يمكن أن يواجهه رجل، فقررت الابتعاد عن خطيبتي بغير إبداء أسباب، وراحت هي تسعى لتعرف أسباب ابتعادي عنها، لكني تحاشيت لقاءها وتركتها وأنا لا زاد لي في الدنيا سوى حبي لها، وكتمت سري وحزني عن الجميع.. فأصبحت في نظرها خائنا لعهد الحب وغادرا، وهي لا تدري أن حرصي عليها كان أكبر من حرصي على أي شيء آخر في الحياة، وأنها كانت الأمل الأخير لي في الدنيا.

وسري الآن يمزقني.. فقل لي يا سيدي: كيف أستطيع أن أبوح به؟.. ولمن أبوح؟.. وماذا أجني من ذلك سوى القليل من المواساة والكثير من التهكم والسخرية من مثل هذه الحالات.. وماذا سأجني سوي زيادة آلامي وأحزاني!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

يسخر من المجروح من لا يعرف الألم يا صديقي، أو من يضمن أن ينجو منه في أية مرحلة من مراحل العمر، ولأنه ليس هناك بشر لا يعرفون الألم الإنساني أو يتحصنون ضده بما يضمن لهم حمايتهم منه في قادم الأيام، فإن احتمال أن يسخر (إنسان) من آلامك وأحزانك احتمال شبه منعدم، اللهم إلا إذا كان من (إخوان الصنوبر) الذين قال عنهم الكاتب والشاعر الأمريكي هنري ثورو:

إنهم يشاركون أشجار الصنوبر والأحجار الصماء عجزها عن المشاعر الإنسانية.

ومع

ذلك فليس معنى الإفضاء هو أن نعرض آلامنا وجراحنا النازفة على الجميع بلا احترام لخصوصياتنا، وإنما أن نتخفف فقط من بعض ضغوطها القاسية علينا بالحديث عنها مع من نثق في صدق تعاطفهم الإنساني معنا وإخلاص مشاركتهم لنا في آلامنا من الأعزاء المقربين، وبنفس الهدف الذي أشرت إليه من قبل وهو التخفيف عن النفس والتماس السبل الممكنة لحل مشاكلنا لدى من يقدرون على المساعدة في حلها.

ولقد مارست أنت وظيفة الإفضاء النفسية والضرورية هذه في رسالتك من حيث لا تدري، ورغم إنكارك لملاءمتها لآلامك الشخصية أعانك الله عليها، وربما يسهم ذلك أيضا في مساعدتك على التخلص منها بشكل أو بآخر بإذن الله.

فلا تخجل من أحزانك يا صديقي.. ولا تعتبرها (عارا) تتخفى به عن الدنيا وتتوجس من سخرية الآخرين منه، فأي عار في أقدار الإنسان التي فرضت عليه ولم يخترها لنفسه، وأي عذاب وجحيم في أن ينفرد الإنسان بهمومه وأحزانه فيقاسيها وحده فوق قمة جبل العزلة والوحشة الإنسانية؟

إن ظروفك المأساوية كلها قد تضافرت عليك للأسف وأضعفت من قدرتك على الصمود للشدائد، ولا لوم عليك ولا عتاب في ذلك، فالمعاناة القاسية الطويلة قد تستهلك أحيانا قدرة البشر على المقاومة.. بل وقدرتهم على الاستعداد للسعادة أيضا، وما جرى لوالدتك مثال أليم لذلك، فلقد التهمها الشقاء الطويل - رحمها الله - فانهارت مقاومتها في النهاية وأصيبت بالاكتئاب النفسي، والمؤلم حقا أنها قد استسلمت لظروفها القاسية بعد رحلة المعاناة البطولية، فأنهت حياتها بيديها قبل خط النهاية بخطوات.. وحين آن للقلب المتعب أن يتنسم بعض نسائم الراحة. لكن هكذا تجري أمور الحياة في بعض الأحيان للأسف، وقد تنطوي صفحة عمر البعض ولما يؤذن بعد للقلب العليل أن يعرف طعم الراحة.. كأن الراحة - ترف لا يعرفه البسطاء، كما جاء على لسان الكهل البائس مقار ديو فشكين في، رواية دوستويفسكي العظيم (المساكين).

على أية حال.. ومهما كانت قسوة الظروف، فلا مفر من أن يواجه كل إنسان أقداره بشجاعة وكما يفعل الشرفاء، وحالتك قابلة للشفاء التام بإذن الله، لكنها تتطلب صبرا وتكلفة مادية لا تسمح بها ظروفك، والذي لا يعلمه كثيرون ممن يتخفون بآلامهم المماثلة لآلامك، أن خدمة العلاج الحديث والناجح لهذه الآلام متاحة لكل من يحتاج إليها بقسم أمراض الذكورة بمستشفى قصر العيني الجامعي، ورئيسه وأساتذته وأطباؤه متعاونون ويتفهمون عمق معاناة مرضاهم، فاتّصل بي ولا تتردد ولا تخجل من أحزانك، فسوف يتوافر لك العلاج الناجح بإذن الله، وسوف تسترد (أملك الأخير) في الحياة، وتستعيد فتاتك الرقيقة الطيبة التي آثرت أن تبدو في عينيها خائنا وغادرا على أن تشركها معك في معاناتك، ولو كنت قد طالبتها بالصبر عليك بعض الوقت حتى ولو لم تبح لها بأحزانك، لما ترددت في التمسك بك، ولربما أعانك وجودها في حياتك على الشفاء الذي تؤثر فيه بالفعل الحالة النفسية الطيبة والمتفائلة، لكنك شئت غير ذلك، ولست ألومك عليه، فكل

إنسان أدري بما يستطيع احتماله، ولا يعرف الألم في النهاية إلا من يكابده.. فتفاءل خيرا بإذن الله..

والله فعال لما يريد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوصية

«إن الخلاف هو محك الأخلاق
الحقيقية للإنسان، وليست أوقات
الصفاء ولا مرحلة الرغبة في
الآخرين والتودد إليهم«

أنا سيدة في الثالثة والأربعين من العمر، تزوجت منذ عشرين عاما من شاب يكبرني بثماني سنوات ويعمل موظفا بإحدى المصالح الحكومية، ولم يشأ لنا الله أن ننجب أطفالا لعقم زوجي، لكني لم أفكر لحظة في الانفصال عنه، رغم تحريض أهلي لي على ذلك طوال السنوات الأولى من زواجنا، وكان تقديري في ذلك هو أن زوجي إنسان طيب وعطوف وحنون ومحبوب من الجميع ويحبني حبا ولا يتوانى عن محاولة إسعاد وإرضائي بكل السبل فكيف أحرم نفسي من عشرته الجميلة لسبب لا إرادة له فيه.

حتى زوجي نفسه عرض عَلَيَّ بعد بضع سنوات من الزواج وبعد أن صنع المستحيل لكي ينجب ويئس نهائيا من إمكانية ذلك، أن ينفصل عني لكي أتزوج غيره وأنجب أطفالا، لكني نهيته عن العودة لهذا الحديث مرة أخرى، وأكدت له أنني أحبه وأريده هو وليس أحدا غيره.. ثم إن حياتي سعيدة ولا أعرف معه سوى المرح والضحك والدلع وكل شيء جميل في الحياة، وهو رجل متدين ويعرف حقوق ربه ولا يقصر معي في شيء.. فلماذا أهدم حياتي وسعادتي من أجل أمر لم تشأه لنا إرادة الله؟

لقد مضت بنا سنوات العمر سعيدة بهيجة.. وتفانى زوجي في حبي والإخلاص لي، وبذل كل ما في وسعه للحصول على شقة أوسع وأجمل وتطل على منظر ساحر، لكي ننتقل إليها وأسعد بالحياة فيها.. وكان يتنبأ برغباتي وأمنياتي ويسرع بتحقيقها لي، وتفانيت أنا أيضا في حبه والإخلاص له، وتمنيت من ربي أن تطول حياتنا معا حتى أسبقه إلى العالم الآخر.

ومنذ شهور مرض زوجي بمرض مزمن لعين ظهرت عليه أعراضه فجأة، وبذلت كل جهدي لرعايته في مرضه ولازمته في مراحل العلاج ليل نهار، ثم غدرت بنا الأيام فجأة واختاره الله إلى جواره، وماتت البهجة التي كانت تظلل شقتي، وتغيرت الدنيا تماما من حولي، وبعد أن كانت زيجتي أسعد الزيجات بين إخوتي، وجدت نفسي فجأة إنسانة وحيدة تماما، أعيش في مسكني الذي ما زالت تتردد فيه أنفاس زوجي الحبيب وتتراءى لي فيه ذكرياته.

وبعد أسبوع من الوفاة شاركتني خلاله أمي الإقامة معي في مسكني، نصحني الجميع بالعودة إلى العمل لكي أنشغل به عن أحزاني.. لكن هيهات أن أستطيع ذلك يا سيدي، فأنا أرى زوجي خلال سيري في الشارع.. وأراه في وجوه الجيران الذين كانوا يحبونه، وتعلق أملي في أن تبقى معي أمي في مسكني الحالي لفترة طويلة، لكن أخي المتزوج لم يستطع الصبر على بقاء أمي معي أكثر من أيام لأنه

يعيش معها ومع أبيه وزوجته وأولاده وأخي الأصغر، ويريد أن تعود أمي إلى بيت الأسرة الضيق المزدحم بسكانه لكي ترعى أولاده الصغار خلال غيابه وزوجته في العمل، مع أن والدة زوجته تستطيع أن تقوم بنفس المهمة.. لكن كيف تكون أمه على قيد الحياة ويرسل أبناءه إلى أم زوجته كما قال لي مستنكرا؟!

لقد راح شقيقي - سامحه الله - يحرض أبي على إعادة أمي للبيت بدعوى أن ترعى شؤونه.. وجاء إليّ يتوعدني بعقاب السماء لأنني أحتكر أمي لنفسي وأحرم أباه الشيخ من حقوقه عليها في رعايته.

فرجعت أمي إلى بيتها، ووجدت نفسي وحيدة تماما.. أجلس في مسكني من الظهر حتى الصباح.. أبكي نفسي وحياتي وسعادتي التي ذهبت إلى غير رجعة، ولولا سيدة مسنة كانت تقوم ببعض شؤوننا في حياة زوجي، وكان هو يحنو عليها وعلى أولادها، لانهرت واستسلمت للاكتئاب النفسي. فقد تطوعت هذه السيدة بأن تبيت معي إكراما لذكرى زوجي الطيب الذي كان يعطف عليها، فأصبحت تأتي لقضاء الليل عندي وتخرج معي في الصباح، فأذهب إلى عملي وتذهب هي إلى بيتها.. فإذا منعها مانع من المجيء اضطررت لقضاء الليل الطويل وحدي.. أو ذهبت للمبيت لدى إحدى شقيقاتي المتزوجات حتى أصبحت أحمل معي دائما كيسًا من البلاستيك به فستان للبيت ومشط وفرشاة أسنان استعدادا للطوارئ، أما مسكن أبي وأمي فهو يضيق بمن فيه، وذهابي إليه يزيد من معاناتي لأنه لا مكان لي فيه، ولأن إخوتي الذكور يضيقون بحزني وبكائي الدائم على زوجي ووحدتي، كما أنهم لا يزورونني في مسكني، وتمضي أيام الإجازات بي وأنا في وحدة قاتلة حتى تمنيت ألا تتعطل المصالح الحكومية عن العمل أبدا في أية مناسبة دينية أو وطنية لكي أخرج للعمل كل يوم وأجد من أتكلم معه، فلقد أمضيت يومي الإجازة بمناسبة شم النسيم وعيد تحرير سيناء في أسوأ حال، حتى كدت أتكلم مع نفسي في الشقة الصامتة، وتكرر نفس الحال يوم إجازة عيد العمال في أول مايو، ولم يحرص على زيارتي كل أسبوع والاهتمام بأمري سوى شقيقة زوجي الراحل وبناتها الثلاث، فقد رحن يزرنني كل أسبوع ويحثها زوجها على زيارتي ويزورني معهن، وشقيقة زوجي سيدة طيبة وحنون وكانت دائما تحبني وتوصي شقيقها بي، بسبب حرماني من الإنجاب، وقد ازدادت عطفا علَيّ بعد رحيله عن الحياة، ولم تنفك عن أن تعبر عن اعتزازها بي باعتباري من (رائحة المرحوم) ولأنني كنت له الزوجة المحبة التي أسعدته ورعته طوال حياته وفي مرضه. فازداد تبادل الزيارات بيننا، ولم يعد يمضي أسبوع إلا وتزورني أو أزورها في بيتها.

وذات يوم جاءني زوج شقيقة زوجي وفاجأني بأن قال لي: إنه قد رأى المرحوم في نومه وأنه أوصاه بي ورجاه رجاء حارا أن يتزوجني وألا يدعني أبدا لرجل غيره، لأنني كنت أتمنى الإنجاب في حياته ولم يستطع أن يحقق لي هذه الأمنية، وزوج شقيقته هو القادر على الإنجاب مني، كما أنه من ناحية أخرى يتمنى أن ينجب من جديد لأن بناته قد كبرن وهو يشتاق لأطفال جدد في حياته.

ودهشت للمفاجأة.. وصارحته بأنه أمر صعب لأنه سوف

يحرجني إحراجا شديدا مع زوجته التي تحبني، وسوف يحولها إلى خصم لي بعد أن كنا من أقرب الصديقات، كما أنه سيحول بناتها أيضا إلى عدوات لي، وسوف يكرهنني بشدة بعد أن كن يحببنني، فضلا أن أهلي سوف يعارضون هذا الزواج ولن يوافقوا عليه.

لكنه لم ييأس وطلب مني التفكير في الأمر، وأكد لي أنه سيتزوج مرة أخرى لينجب من جديد لأنه لم يشبع بعد من الأولاد، سواء قبلت به زوجًا أو رفضته.

وراح بعد ذلك يرجع إلى كل بضعة أيام ليقول لي: إنه قد رأى المرحوم مرة أخرى في الحلم وأنه قد كرر عليه الوصية الغالية، فأكدت له أنني على أية حال لا أستطيع أن أفكر في هذا الأمر قبل أن يكتمل عام على الأقل على رحيل زوجي، فطلب مني أن أستغل فترة الانتظار هذه في التفكير في الأمر وتقليبه على كل الوجوه، وسوف أجد نفسي في النهاية موافقة عليه. ولدهشتي أنا قبل غيري يا سيدي فلقد وجدت نفسي أفكر في هذا الأمر فعلا ليل نهار، فلا يشغلني خاطر غيره.. ووجدت نفسي أقول إنني أموت في وحدتي يوميا وكل فترة تفاجئني نوبة مرضية، فتسرع السيدة المسنة لإحضار الطبيب الذي يفسرها بأنها اضطراب في دقات القلب بسبب التوتر الشديد والحزن والاكتئاب والوحدة، والسيدة المسنة التي تمضي الليل معي مريضة بأمراض عديدة وتعجز أحيانا عن الحضور للمبيت معي، وإخوتي منشغلون عني بحياتهم وأبنائهم ولا أحد يزورني منهم إلا نادرا، وحين أمرض يجيئون كالأغراب ويتركونني لوحدتي بعد وقت طال أم قصر، والرجل الذي يعرض، على هذا العرض يعمل بوظيفة مرموقة وعلى أخلاق عالية، وهو الذي يحث زوجته وبناته علي زيارتي والاهتمام بأمري خاصة في المرض.. فهل يكون أمرا قاسيا فعلا لو قبلت الزواج منه وتخلصت من وحدتي؟

إنني حائرة وتائهة ومشتتة ولا أستطيع اتخاذ قرار صائب في هذا الأمر.. فهل ترشدني إلى الصواب؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

الأمر لا يستحق كل هذه الحيرة والتشتت والمعاناة يا سيدتي، «فالوصية» التي يحدثك عنها هذا الرجل أكذوبة مفضوحة ولا تثبت أمام التفكير السليم، إذ كيف يقبل عقلك أن يصدق أن زوجك الرجل الحنون العطوف الذي يعرف حقوق ربه جيدا لا يتخير من الرجال ليوصي به من العالم الآخر زوجا لك إلا من تشقى شقيقته وتفجع فيه وفيك وفي الخير والوفاء والإنسانية كلها حين تتزوجينه؟

إنها خرافة ساذجة ابتدعها خيال هذا الرجل ليضفي بها طابعا ميتافيزيقا وهميا على رغبته في أن يتزوج أرملة صهره، بحيث يبدو عرضه لك وكأنه استجابة قدرية لنداءات غامضة من العالم الآخر، مع أن الأشباح قد توقفت عن الظهور للأحياء وإبلاغهم برغباتها، وإشاراتها واجبة التنفيذ.. لا في الواقع لأنها لم تكن

تظهر فيه أصلا.. وإنما أيضا في القصص والمسرحيات الكلاسيكية منذ ظهر شبح الملك القتيل لهاملت المعذب في رواية شكسبير ليبلغه بتآمر أمه وعمه عليه لقتله لكي يجلس العم على العرش ويتزوج أرملة شقيقه!.. فكيف قبل عقلك إذن هذا الهراء إلا إذا كنت تخدعين نفسك تحت وطأة الوحدة والاكتئاب وتريدين أن تصدقيه أملا في التخلص من معاناتك؟

إن الأحلام كما يقول لنا علماء النفس: هي تعبير لا إرادي بالرؤية عن الرغبات المكبوتة في العقل الباطن للإنسان، أما الرؤى التي تحمل دلالات جادة فقد اختص بها الله سبحانه وتعالى الأنبياء وعباده الصالحين، الذين لا يمكن أن يتوسلوا بها لإقناع أرملة توفي عنها زوجها منذ شهور بالزواج منهم وهذه الحقيقة وحدها تكفي لتجريد رغبة هذا الرجل في الزواج منك من الوهم الميتافيزيقي الذي حاول تجميلها به، أما حلم الإنجاب الذي لم يتورع حتى عن استغلاله لإقناعك بالزواج منه، فهو خدعة أخرى لا تقل بشاعة عن الوصية المزعومة، فأنت يا سيدتي في الثالثة والأربعين من العمر، ولم يسبق لك الإنجاب من قبل، وبالتالي فإن فرصتك فيه إن لم تكن منعدمة فهي ضئيلة للغاية.. فما معنى خداعك بهذا الحلم القديم.. إلا أن يكون تحايلا رخيصا عليك للاقتناع بالزواج منه؟

يا سيدتي.. إن من حقك أن تبحثي عن حل لوحدتك ومعاناتك بعد رحيل زوجك، ومن حقك بكل تأكيد أن تتزوجي مرة أخرى وتتعزي بحياة جديدة عن وحدتك وحرمانك من الأطفال، ولست في حاجة لأن تعتذري لأحد عن رغبتك هذه ما دمت في حاجة ماسة إليها، لكن الدنيا من الناحية الأخرى لم تضق على رحبها بحيث لا تتزوجين من بين كل الرجال سوى زوج شقيقة زوجك التي أحبتك دائما وحنت عليك في وحدتك، وحاولت بإخلاص أن تبدد وحشتك وتهتم بأمرك هي وبناتها بعد رحيل زوجك.. نعم لم تضق الدنيا بما رحبت حتى لا يكون مخرجك من وحدتك ومعاناتك إلا على حساب تعاسة هذه السيدة وبناتها.. وهي التي لم تقدم لك سوى الخير والحب والعطاء الإنساني منذ ارتبطت بشقيقها، كما أن هذا الرجل ليس آخر الرجال ولا هو أفضلهم بالنسبة إليك، إذ كما رغب فيك ولم يمض على رحيل زوجك سوى بضعة شهور، فلسوف يرغب فيك رجال آخرون لا يسقط ارتباطك بأحدهم اعتبارك لدى أسرة زوجك الراحل كلها، ولا يكسبك زواجك منه عداوة من كن أقرب الناس إليك، ولا اعتراض أهلك واحتجاجهم عليك لما سوف ينالهم من رذاذ هذا الزواج اللاإنساني. وهذا السبب يكفي وحده لأن ترفضي هذا الرجل وتتكتمي عرضه عليك بالزواج عن أسرته، وتطلبي منه بحزم ألا يزورك مرة أخرى مع زوجته وبناته، ومع ذلك فهو ليس السبب الوحيد لرفضه، وإنما هناك من الأسباب والعلامات المخيفة ما يدعوك لرفضه والنجاة من براثنه.. منها أن هذا الرجل ليس أهلا للثقة فيه أو الاطمئنان إليه، وأكذوبة «الوصية» التي ادعاها على من لا نستطيع دعوته للشهادة على صحتها، دليل كاف على أنه مخادع ولا يتورع عن استغلال كل الحيل والأساليب للتوصل إلى ما يريد ولو استعان بالموتى على ذلك، ومنها كذلك أن من لا يقيم وزنا للجرح الغائر الذي سيتسبب فيه لزوجته وبناته بزواجه من أرملة شقيق شريكة حياته وزوجة خال بناته، لا يمكن أن يكون

الرجل الذي تأمن إليه أرملة وحيدة مثلك تريد أن تجد لديه الأمان والاستقرار والحماية النفسية بقية العمر، فمن لا يتورع عن إيلام أعزائه بلا مبرر بهذه القسوة التي تشككهم في جدوى الخير.. والقيم.. والإنسانية باختياره لأرملة شقيق زوجته بالذات لكي يتزوجها.. مثل هذا الرجل يا سيدتي الذي لا يتوقف أمام هذه الاعتبارات العائلية والإنسانية لا يؤمن غدره، فكيف تأمنين أنت له؟

بل وكيف تتصورين حياتك معه إذا اعترضتها بعض العقبات أو المشاكل التي قد لا تخلو منها حياة؟.. هل سيكون أحرص على مشاعرك مما كان مع زوجته، وبناته؟ وهل ستأمنين معه على كرامتك ومشاعرك واستقرارك عند الخلاف؟

إن الخلاف هو محك الأخلاق الحقيقية للإنسان يا سيدتي، وليست أوقات الصفاء أو مرحلة الرغبة في الآخرين والتودد لهم.. فنحن في أوقات الصفاء والرغبة في الآخرين كلنا ظرفاء ولطفاء ومجاملون ورومانسيون، لكن من لا يخرجه منا الغضب والخلاف عن حدود العدل والأدب إلى الفحش في القول واللدد في الخصومة والإيلام البدني والمعنوي هو وحده من نستطيع أن نثق في أخلاقياته وقيمه ونطمئن إلى رومانسيته وعدالته وسمو أخلاقه.. فكيف تحكمين على «أخلاقه العالية»، ومجرد تفكيره في أن يختارك أنت بالذات - من بين نساء العالمين ليتزوجك - يدحض هذا الحكم وينفيه عنه؟

يا سيدتي.. إن رسولنا الكريم - صلوات الله وسلامه عليه يقول لنا: «اطلبوا الحوائج بعزة نفس، فإن الأمور تجري بالمقادير».

وليس من عزة النفس أن يخدع الإنسان نفسه ويوهمها بما لا يصدقه عقله ليبرر لنفسه قبوله لما لا ينبغي له أن يقبله، وليس منها أيضا أن يضع نفسه موضع الانتقاص واللوم من جميع من حوله لكي ينال ما كان أسهل عليه أن يتعفف عنه حرصا على سمعته وكرامته واحترام الآخرين له.. وليس منها أخيرا - وليس آخرا - أن يستثير على نفسه كراهية من يحبونه وازدراءهم له، وما كان أسهل عليه أن يتفادى ذلك لو اعتصم بشيء من الصبر والحكمة.. والترفع عن الدنايا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليالي الجفاف

»إنني أتعجب لأب يقدر على أن يجعل حياة أبنائه أيسر وأكثر رخاء، فتصفو له نفوسهم ويدعون له بطول العمر، فلا يختار إلا أن يجعل من طول عمره نقمة على أبنائه، فيدعون ربهم أن يكشفها عنهم.. في غمضة عين! «

أكتب إليك يا سيدي عن مشكلة لا تخصني وحدي، وإنما تخص أسرة بأكملها أملا في أن توجهنا للصواب فيها. فأنا طالب في السنة النهائية بإحدى الكليات النظرية، وقد جئت إلى الحياة فوجدت نفسي عضوا في أسرة من خمسة أفراد هم: أنا وشقيق وشقيقة وأب وأم، ونحن نقيم في شقة لا تزيد مساحتها 41 مترا مربعا ومكونة من حجرتين وصالة صغيرة وحمام مشترك مع الشقة المجاورة لنا، ومطبخ به شباك صغير يعد المنفذ الوحيد للشمس والهواء في هذه الشقة الضيقة كالجحر. ومع أن الشقة مكونة من حجرتين، فإن أبي - وهو غريب الطباع - يستقل بحجرة منهما وحده منفردا بنفسه، وعندما يريد معاشرة أمي فإنه يسمح لها بالنوم عنده تلك الليلة فقط، أما باقي الأيام فنتكدس جميعا في الغرفة الأخرى، فأنام أنا وشقيقي على فراش ضيق لا يسمح لأحدنا بأن يتقلب، وتنام أختي على كنبة نسميها فراشا، وتفرش أمي في الأرض فراشاً تنام عليه بين الكنبة والسرير، وما أكثر الليالي التي تنتاب أمي فيها نوبات اكتئاب وبكاء متصل لا تدري خلاله بما تقول، فتسب أبي وتتحسر على زواجها وتحكي لنا كيف طلقت منه مرة في بداية زواجها منه بسبب مصروف البيت، وكيف باتت ليالي عديدة تلعن اليوم الذي تقدم فيه لخطبتها، وتشكو لنا من بخله، وكيف أنها إذا اشترت أي شيء من احتياجات البيت فلابد أن تقدم له فاتورة حساب بقيمة ما اشترته، وإذا تبقى معها عشرة قروش من ثمنه استردها منها بلا حرج، فنلتف نحن حول أمي نهدئها ونطالبها بمزيد من الصبر، إلى أن تمر نوبة الاكتئاب بسلام فلا تمضي أيام حتى تعاودها مرة أخرى، ويخيم الهم والضيق علينا من جديد.

والحق أننا كنا على استعداد لأن نصبر على ظروفنا ونعتبر أبي بطلا لأنه يعلمنا رغم سوء الظروف، لولا شيء واحد سوف تدهش له، وهو أنه ليس فقيرا ولا معدما كما قد تتصور مما ذكرته لك، وإنما هو مدير لفرع إحدى شركات التأمين الكبرى بإحدى مدن الأقاليم، وله أملاك ورثها عن جدي - رحمه الله - ولديه حساب بالبنك به رصيد كان يمكن أن نعيش به في مستوي كريم من العيش كباقي أفراد أسرتنا الذين يرثون لنا مع أننا أفضل منهم ماديا.. فأبي يا سيدي بخيل للغاية، ويعز عليّ أن أقول لك إنني وإخوتي نتمنى له الموت ونحلم بما سنرثه عنه من المال الذي حرمنا منه رغم شدة حاجتنا إليه!

إنني أعرف أنك لا تحب أن يتحدث الأبناء عن الآباء بهذه اللهجة حتى لو كانوا ظالميهم، لكني أرجو أن تعذرنا حين تعلم أن أبي المدير وصاحب الأملاك والحساب في البنك لا يخجل من أن يأتي إلينا بملابس أبناء أقاربنا القديمة أو التي ضاقت عليهم، ويقول لنا بلا حرج: هذه هدية من أولاد عمكم أو خالكم!.. أو حين تعلم أننا نرجوه ويلح عليه كل أقاربنا بأن ينقلنا إلى شقة أوسع نستطيع أن نتنفس فيها ونستقبل أقاربنا، وهو قادر على ذلك، والشقق في مدينتنا ليست باهظة الثمن كما هو الحال عندكم في القاهرة، ومع ذلك فهو يرفض بإصرار ذلك ويقول لمن يطالبه بذلك من أهلنا: كل إنسان له نظامه الخاص في حياته.. وهذا هو نظامي وطبعي..

ناهيك عن أنه يرفض بالطبع أن يساعدنا ونحن في سن الشباب بأي شيء في بداية حياتنا، أو بأي شيء يلبي احتياجاتنا كشباب نرى أقاربنا يتمتعون بما نحرم منه.

إن أحد أقاربنا ينصح أمي بأن ترفع عليه دعوى حجر على أملاكه ورصيده في المحكمة بعد خروجه إلى المعاش خلال شهرين، وقلبي لا يطاوعني أن نفعل ذلك به، لكن عقلي وحرماني يدعواني من ناحية أخرى لقبول الفكرة، خاصة وأن أمي وأختي توافقان عليها.. فبماذا تنصحني أن أفعل؟.. إنني أستحلفك بالله ألا تكتب لي وحدي وإنما لكل أسرتي، وأن توجه لأبي كلمة تنصحنا فيها جميعا بالصواب، والحمد لله فإننا نشتري الأهرام يوم الجمعة فقط حسب أوامر أبي ونظامه لكي نقرأ بابك ونقرأ العدد الأسبوعي.. فأرجو ألا تتأخر في الرد على رسالتي. وشكراً لك

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

والله يا صديقي أنه لو كان الحجر على أبيكم يجوز وقانونا لما ترددت في نصحكم بالحجر عليه وكف يده عن ماله الحبيس لتأخذوا منه ما يكفل لكم العيش الكريم، رغم ما تعرفه من نفوري الشديد من أن ينازع ابن أباه أمام المحاكم مهما كانت الأسباب.

لكن المشكلة هنا ليست في قبولي للفكرة أو رفضها، وإنما في أن أحكام الحجر لا تنطبق على حالة أبيكم هذا للأسف، فالحجر منع الإنسان من التصرف في ماله لصغر في السن أو جنون أو سفه أو مرض مهلك أو إفلاس، وحكمته في حالة الصغير الذي لم يبلغ سن الحلم أنه غير قادر على حسن التصرف في ماله، وبالتالي فإن تصرفاته المالية غير جائزة إلا برضا والديه أو الوصي عليه - إذا كان يتيما. حتى يبلغ سن الرشد. وحكمته في حالة السفيه الذي يسيء التصرف في ماله ويبدده شذرا في شهواته أو بسوء تصرفه هي أن يمنع من التصرف في ماله بهبة أو بيع أو شراء حتى يرشد، لأنه مستخلف في مال الله لديه وينبغي عليه أن يحسن التصرف فيه بما لا يضر ورثته، ولا يسيء إلى الحياة في مجتمعه

أو يزيد من صعوبتها على المحرومين، مصداقا لقوله تعالى: {آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ} (سورة الحديد، الآية: 7). ونفس القاعدة تنطبق على المجنون الذي ضعف إدراكه.

أما في حالة الإفلاس فحكمته هي كف يد المدين - الذي استغرقت ديونه للآخرين جميع أملاكه - عن التصرف بالبيع فيما يملك حتى يقضى القاضي ببيعها وتوزيع حصيلة البيع على الغرماء، أي أصحاب الديون.

وكل هذه الأحوال لا تنطبق على أبيك، لأن البخل قد كف يده تلقائيا عن التصرف فيما يملك ببيع أو شراء.. أو حتى باستئجار شقة لائقة يقيم فيها مع أولاده بما يتناسب مع مستواه الاجتماعي والعائلي.. فعلى أي أساس إذن تقيمون دعواكم عليه ويده مغلولة إلى صدره بحكم أشد وطأة من حكم القضاء.. هو حكم الشح والتقتير على من يتحمل أمام ربه والمجتمع مسؤوليته الكاملة عن توفير الحياة الكريمة لهم؟

وماذا يعني المال بالنسبة إليه وهو مجمد في رصيد ميت لا يتحرك في البنك، وفي أملاك لا يستمتع صاحبها ولا أسرته بعائدها؟!

إن الآباء ليسوا مسؤولين فقط عن توفير إمكانيات الحياة الكريمة لأبنائهم، بل وعن توفير هذه الإمكانيات لهم أيضا بما يتناسب مع مكانتهم الاجتماعية والعائلية وأوضاعهم المادية، وبما لا يشعرهم بالحرمان ولا الدونية تجاه نظرائهم وأندادهم في الحياة، بل إن هذه المسؤولية لتمتد أيضا إلى إعانتهم على الزواج إذا بلغوا سنه وكان الآباء قادرين على ذلك، وإلا وقع عليهم - أي على الآباء - وزر كل إثم يصيبه هؤلاء الأبناء لم يعنهم آباؤهم القادرون بمالهم على الزواج وإعفاف أنفسهم، كما علمنا ذلك المربي الأعظم، صلوات الله وسلامه عليه. فماذا تريدني أن أقول لأبيك أكثر من ذلك؟..

وماذا يجدي الحديث مع أب لا يأنف من أن يدعو زوجته إلى فراشه حين يروق له ذلك، غير مبال بمشاعر أبنائه في سن الشباب، ثم يعيدها إليهم في اليوم التالي لتفترش الأرض إلى ما لا نهاية، وينفرد هو بأنانيته العجيبة بنصف «الجحر» الذي رضى لنفسه ولأبنائه بالحياة فيه؟!

إن البخل آفة لعينة لا شفاء منها ولا أمل فيمن تمكنت منه، ولا جدوى لأي حديث معه، ذلك. ولكراهيتي الشديدة لأن ينازع ابن أباه أمام القضاء. فلن أنصحكم بإقامة دعوى نفقة عليه وهو التصرف القانوني المناسب لحالتكم، وإنما سأنصحكم فقط. وحفاظا على ما تبقى من مشاعر إنسانية تربطكم به - بألا تكفوا عن الضغط عليه والاستعانة بالأهل.. بل وبالغرباء أيضا، وحبذا لو كانوا من رؤسائه، لتوريطه في دفع خلو شقة أوسع قليلا ولا أقول في شرائها، وربما يجدي الضغط عليه في هذا الشأن عن طريق تخييره بين أن يتفضل بإخلاء غرفته لوالدتك وشقيقتك على أن ينضم هو إلى غرفة الذكور ويقاسمهم حياتهم في الغرفة الضيقة، مع فرض هذا العزل عليه إلى ما لانهاية.. وبين أن يتفضل أيضا باستئجار شقة من ثلاث غرف يكون لك ولشقيقك فيها غرفة مستقلة، ولأمك

وشقيقتك غرفة ثانية، ولأبيكم غرفة منفردة كما يشاء ويهوى.. ولا بأس في هذه الحالة من أن يستضيف فيها زوجته من حين لآخر، وإن كان الرشد والعقل والدين يطالبونه بأن يقاسم زوجته غرفته بشكل دائم مراعاة لاعتبارات عديدة أتعجب كيف غابت عنه في غمار انشغاله عن كل شيء بعبادة رب لا ينفع ولا يضر.. هو المال! كما أتعجب أيضا لأب يملك ويقدر على أن يجعل حياة أبنائه أيسر وأكثر رخاء، فتصفو له نفوسهم ويدعون له بطول العمر.. فلا يختار ذلك، وإنما يختار أن يجعل من طول عمره نقمة على أبنائه فيدعون ربهم أن يكشفها عنهم في غمضة عين.. ولله في خلقه شؤون وأعاجيب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السهم المسموم

«الإنسان الذي يقطع كل الخيوط
في لحظة واحدة مع من كان
على وفاق معهم قبل لحظات، ثم
ينفجر ضدهم بالفحش والسخائم
كقاذفات اللهب، إنسان لا يؤمن
جانبه ولا يمكن أن تستقر سفينة
الحياة معه!»

لا أريد برسالتي هذه مطلبا ولا مسعى لحل مشكلة.. ولكن أريد فقط أن يقرأها من قد يواجهون مثل ظروفي ويستفيدون بدروسها.

فأنا فتاة في الثانية والثلاثين من عمري، أعمل بهيئة حكومية، وقد رحل أبي عن الحياة منذ 9 سنوات، فأحسسنا بفراغ كبير في حياتنا لغيابه، فقد كان حنونا رقيقا مع أبنائه، على عكس أمي التي كانت دائما مستبدة الرأي ولا تراعي مشاعرنا أو حتى مشاعر أبي كرجل البيت رحمه الله. وبعد رحيل أبي بعدة سنوات تقدم لي وأنا في الثامنة والعشرين من عمري زميل بالعمل يتقاضى مرتبا محدودا ووالده عامل مثقل بالأبناء وأمه ربة بيت، وقد حدثتني عنه زميلة في العمل ومدحت كثيرا أخلاقه وطيبة أهله، وعرضت الأمر على أسرتي فرحبت به وتحدد موعد للزيارة، وجاء ومعه أهله وتم الاتفاق على إعلان الخطبة، على أن يتم الزواج خلال 3 سنوات ليتمكن من تشطيب الشقة المتواضعة التي استأجرها بغير تشطيب في حي شعبي.

وتمت الخطبة، وأحببت خطيبي لطيبته وحنانه وشدة حبه لي رغم قصور يده عن تقديم أية هدايا لي بسبب ظروفه المعروفة. وكرس خطيبي حياته كلها لإعداد الشقة للزواج.. وراح يعمل في كل عمل إضافي يتاح له لكي يوفر ما يحتاج له من نقود، غير مبال بمظهره أو بأي شيء آخر، ورحت أنا أيضا أوفر كل قرش أستطيع توفيره من مرتبي لإعداد نصيبي في الجهاز، ونسيت كل شيء سوى هذه المهمة الأساسية، وخلال ذلك لاحظت أن أهلي الذين رحبوا بخطيبي في البداية قد بدأوا ينفرون منه بلا سبب سوى ضعف إمكانياته، ويضيقون به وبزياراته لنا رغم أدبه معهم واحترامه لهم وحرصه على مشاعرهم.. فلم أهتم بموقف أهلي منه، وواصلت الاستعداد للزواج، وانتهى خطيبي خلال عامين من إعداد الشقة، وبدأنا الإعداد لعقد القران والزفاف، وجلس إخوتي فيما بينهم وقرروا أن يشتروا لي الصالون وأن يشتري هو حجرة النوم، وأبلغته القرار، فسعد به كثيرا وشكرنا عليه بحرارة، ودفع بالفعل مقدم ثمن حجرة النوم على أن يدفع باقي الثمن بالتقسيط، وطلب أهلي من خطيبي إتمام الزفاف خلال شهر واحد، فرجاهم الصبر عليه أربعة أشهر فقط لكي يدبر نفقات الفرح بعد أن استنفد كل ما كان معه في إعداد الشقة ومقدم حجرة النوم، فانفجر فيه أهلي غاضبين وساخطين، وأهانوه بقسوة وسبوه وطردوه من بيتنا، وأنا أعترض على ما يفعلون ولا أستطيع منعه

للأسف، وبعد خروجه واصلوا الحديث عنه وكيف أنني يجب أن أترك هذا الفقير.. الصرصار.. الذي لم يكن من» مقامنا» من البداية.. إلخ. واعترضت بشدة على هذا الهجوم على خطيبي، ودافعت عنه بأنه لم يخدعنا في شيء من الأصل.. ولم يدع شيئا غير صحيح عن نفسه أو عن أهله أو إمكانياته، وأنه كافح بإخلاص وفعل أقصى ما يستطيع ليفي بوعوده، لكن هيهات أن تغير أمي رأيها بعد أن حسمت أمرها، ورأت خطيبي هذا غير لائق بنا.

وفي اليوم التالي جاءني خطيبي في العمل مما حدث، وأكد لي أنه يحبني ويريدني ولا يريد ما سوف يقدمه لي أهلي من أثاث أو جهاز، وأكد لي أنه سوف يرجع إلى بيتنا مرة أخرى مع أهله - رغم كل ما حدث. لإصلاح ذات البين وإنقاذ زواجنا، وأحسست بالإشفاق على خطيبي وحاولت قدر جهدي أن أطيب خاطره.

ورجع خطيبي بالفعل لزيارتنا مع أهله أملا في أن يخفف وجودهم معه حدة الهجوم عليه، لكنه لم يستطع الكلام من البداية، ولم تعط أمي الفرصة له أو لأهله لكي يفتحوا أفواههم بكلمة صلح أو خير، وانطلقت أمي وإخوتي في الكلام والانفعال من اللحظة الأولى، وعايروا خطيبي وأهله بما أحضرت أسرتي من جهاز وأثاث، في حين أنه سيبدأ حياته معي وهو مدين بأقساط غرفة النوم، مما يعني أنهم سيواصلون الإنفاق على ابنتهم حتى وهي في بيت زوجها، وربما اضطروا أيضا للإنفاق عليه.. إلى آخر هذا الكلام الجارح المهين. ولم يراع أحد حرج موقف خطيبي بين أهله أو مشاعرهم، وارتفع صوت أمي فاخترق أسماع الجيران.. وجاءوا للتهدئة والإصلاح وهم محرجون ومتألمون لما يجري، وخرج خطيبي وأهله من بيتنا كسيري النفس صامتين.

ولم تقصر أمي بعد ذلك في الإساءة لخطيبي لدى الجيران والأصدقاء وكل من عرفوه أو رأوه في بيتنا، ورغم ذلك فلقد جاءني خطيبي في العمل مرة أخرى ووعدني بأن يرجع مرة ثالثة للصلح بعد أن تهدأ النفوس قليلا، لأنه لن يتخلى عني لمثل هذه التصرفات العابرة.. وحاول الصلح فعلا، وحاولت بقدر جهدي إصلاح الأمر بينه وبين أهلي إلى أن يئست تماما، وأشفقت عليه من كثرة الفضائح، ففسخت الخطبة وفي قلبي سهم مسموم مما حدث.

وتجنبني خطيبي السابق بعد ذلك تماما وغاب عن أنظاري، ثم علمت من زميلتي التي رشحتني له بعد شهرين من فسخ الخطبة أن صديقا له يعمل بالخارج قد رشحه للعمل معه.. فحصل على إجازة بدون مرتب وسافر إلى عمله الجديد، ومضى عام طويل بحلوه ومره، ثم رجعت من عملي إلى البيت ذات يوم فوجدت أمي وإخوتي يتحدثون عن خطيب جديد يريد أن يأتي لكي يراني، وكيف أنه من أسرة محترمة مثلنا وليست كأسرة خطيبي السابق وكيف أنه يحمل مؤهلا عاليا ويعمل عملا مرموقا وله أملاك ويحيا في بحبوحة من العيش وليس كذلك «الجربان» الذي تخلصوا منه.. إلخ.. وجاء العريس بالفعل وزارنا في البيت ورآني وتحدث معي، ونلت القبول لديه.. أما أنا فلم أكرهه.. ولم أحبه.. وإنما تذكرت بشدة أنني قد جاوزت الثلاثين وأصبحت في حاجة إلى الزواج قبل أن يفوتني القطار.

وتمت الخطبة، وبدأ خطيبي يتردد علينا مرة كل أسبوع فيأتي كل مرة محملا بالهدايا.. ويستقبله أهلي بالحفاوة والتهليل والترحيب والتكريم فأتعجب في داخلي لفارق المعاملة بينه وبين خطيبي السابق، فأفخر الطعام يتم إعداده يوم مجيئه، وأحسن ما لدينا من أوان وفناجين وأكواب تخرج من مخزنها لاستخدامها يوم الزيارة السعيدة، وكلما أبديت ملاحظة على ذلك قالوا لي: إن لكل إنسان مقامه وما يستحقه من معاملة، وأن خطيبي الثاني «ابن ناس» ولا يجوز أن نظهر أمامه بأقل من هذا المظهر، واستمرت خطبتنا عاما تمكن خلاله من إعداد كل شيء، وأعددنا نحن نصيبنا في الأثاث بزيادة كبيرة عما كنا أعددناه لخطيبي الأول.

وتحدد يوم الزفاف، فقام خطيبي بحجز قاعة الأفراح، وأحضرنا نحن الأثاث من صالة الموبيليات إلى بيتنا استعدادا للزفاف، وبعد أسبوع جاء خطيبي واتفقنا على نقل الأثاث إلى مسكن الزوجية، وتحدث أهلي بتردد عن قائمة الأثاث التي أعدوها وينبغي على خطيبي أن يوقعها، فانتفض واقفا في غضب شديد وكأن أهلي قد نطقوا كفرا، ووقعت مشادة كلامية بينه وبينهم.. ولكن سبحان الله، العظيم.. فقد انقلبت الآية تماما عما حدث مع خطيبي الأول، فكان صوته أعلى من أصواتهم جميعا ولم يعطهم فرصة للكلام، وإنما انطلق كالمدفع الرشاش يجرح ويهين.. ويعاير أمي الموظفة بأصلها المتواضع الذي نسيته وبأبيها الذي كان بائعا جوالا فقيرا لا يجد قوت يومه، ويعاير إخوتي بأنهم إذا كانوا في مناصب مرموقة الآن فإنهم لم يكونوا كذلك طوال العمر، وإذا كانوا قد نسوا «أصلهم» البسيط فهو جدير بأن يذكرهم به.. إلخ، وأمي تجلس مذهولة لا تستطيع النطق.. وإخوتي الأربعة يجلسون صامتين واجمين.. وجاء الجيران مرة أخرى ولكن على صوت الخطيب هذه المرة وهو يعايرنا، وليس على صوت أمي كما حدث في المرة السابقة، وحاولوا إصلاح الأمر بين خطيبي وأهلي بلا فائدة، وخرج خطيبي وهو يقسم على رؤوس الأشهاد أنه لن يتزوجني بسبب أهلي.. ويقولها صريحة جارحة في وجوههم بلا خجل ولا مراعاة لأي شيء، وانتهت الليلة الكئيبة بخروجه من بيتنا في هذه الفضيحة العلنية القاسية.

ومرضت أمي لما حدث.. وبكيت أنا بحرقة، ليس على هذا الخطيب ولكن على حالي، وعلى ما جرى لي، وتذكرت خطيبي الأول الذي ظل متمسكا بي حتى النهاية رغم كل ما تعرض له من إهانات في بيتنا لم يكن يرد عليها سوى بالعتاب والكلمات الطيبة من نوع: سامحكم الله.. أو: أنتم تظلمونني.. أو: أهكذا يكون قدري عندكم؟: وتذكرت أهله الطيبين الذين تحملوا الكلام الجارح عن ابنهم وعن فقره صامتين لا ينطقون سوى بكلمات العتب والدعاء لأمي أن يسامحها الله على ما فعلت «بضيوفها في بيتنا إلخ..

ولم يرجع خطيبي الثاني بعد ذلك أبدا رغم سعي إخوتي للصلح معه، وتم إلغاء حجز قاعة الأفراح وأعيد الأثاث إلى صالة المبيعات.. ورأيت أهلي كسيري النفس حائرين بعد أن كانوا شامخين بأنوفهم ومتجبرين على خطيبي الأول.. وتذكرت «السهم المسموم» الذي انغرس في صدري حين أهانوه وجرحوا أهله بقسوة

وهم ضيوف في بيتنا، وانتهت خطبتي هذه بالفشل مرة أخرى ولكن لسبب مختلف تماما.

ولست أعترض على قضاء الله ولا قدره لكني أسألك فقط: ماذا فعلت لكي يحدث لي كل ما حدث؟ وما هو ذنبي فيما جرى يا سيدي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا ذنب لك يا آنستي فيما حدث بين أهلك وخطيبيك السابقين إلا في شيء واحد هو سلبيتك مع خطيبك الأول الذي لم تحسني الدفاع عنه لدى أهلك ولم تتمسكي به بالقدر الكافي الذي يردهم عن تحقيره وإهانته وفسخ ارتباطك به.. نعم.. للأهل دور أساسي في فسخ خطبتك، له لكنك كنت في الثلاثين من عمرك حين انفجرت الأزمة، ولم تكوني فتاة مراهقة ولا غريرة، فكيف أخليت بينه وبين أهلك وتركته وحده في حلبة مصارعة الوحوش.. يتعرض لإهاناتهم وتحقيرهم لأسباب لا حيلة له فيها ولم يتمنها لنفسه، وبلا عون منك سوى الإشفاق العاجز والنصيحة اليائسة له بأن يذهب إلى حال سبيله تجنبا للفضائح!

لقد كنت تستطيعين التمسك به والغضب له.. وإقناع أهلك بما في موقفهم منه من تجبر وإيلام لا يقرهما شرع ولا دين، ولو فعلت ذلك لما تّردت الأمور بينهم وبينه إلى حد إهانته وتجريحه أمام أهله وهم ضيوف عليكم.. فالأهل لم يستهدفوا في النهاية سوى صالحك وإن أخطأوا السبيل إليه، وما كانوا ليستطيعوا- لو تمسكت بما تريدين بقوة - سوى التسليم برغبتك والصبر عليه بضعة شهور أخري لكي يتدبر نفقات الزفاف، فلقد صبروا عاما جديدا على الآخر حتى تحدد موعد الزواج، لكن أغلب الظن أنك كنت تسلمين في داخلك ببعض ما ينكره أهلك على خطيبك الأول؛ لذلك فإنك لم تستطيعي التمسك به حتى النهاية.. ورحل الشاب المكافح بعيدا عن موطن الأحزان جريح القلب والكرامة.

ولقد شاءت إرادة الله أن يرد له اعتباره في غيبته وبلا جهد منه، وثأر له ربه من أهلك الذين عبروه بما لا ذنب له فيه وهو رزقه المحدود، بمن لم يتورع عن تعييرهم هم أيضا بما لا ذنب له فيه، وهو جذورهم العائلية.. وبمن لم يرع لهم حرمة، كما لم يرعوا هم حرمة أهل خطيبك الأول وحقهم كأضياف عليهم وهم يجرحون ابنهم أمامهم ويعيرونه بعجزه وفقره. ولكل شيء آفة من جنسه يا آنستي ولكل أفعال الإنسان ثمن واجب السداد يدفعه صاغرا إن آجلا أو عاجلا، فإن كانت خيرا فخير، وإن كانت شرا وتجبرا واستعلاء كريها على البشر فمن نفس الكأس المريرة قد يتجرع حتى ليشكو الظلم وهو الذي قد أصم أذنيه من قبل عن استعطاف من ظلمهم، {كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}[1].. صدق الله العظيم. ولو أنصف الإنسان لما عير أحدا بجذوره العائلية ولا برزقه أو نصيبه من متاع الدنيا، فما لأحد حيلة في كل ذلك، ولأدرك الإنسان أن الشيء الوحيد الذي يستحق أن ينكره

على الآخرين هو سوء خلقهم فقط لأنهم مسؤولون عنه مسؤولية شخصية، وفيما عدا ذلك فلا فضل لأحد فيما يملك أو يشغل من منصب.. أو يحمل من ألقاب عائلية.

ومن عجب أن يجيء «الإنصاف الإلهي» لخطيبك الأول على يد خطيبك الثاني.. ليس فقط بأن أذاقهم مرارة الإحساس بالدونية والقهر أمام من يستعلي عليهم بغلظة ووقاحة، وإنما أيضا بأن ألقى عليهم درسا قاسيا في سوء تقديرهم لمعايير التفاضل بين الناس.. فعرفوا بعد فوات الأوان أن الفضلاء - أو من جرى العرف على تسميتهم «بأبناء الناس». ليسوا هم من يملكون أكثر أو يشغلون وظائف أخطر.. أو يحملون درجات علمية أرقى أو ينتمون لعائلات أكبر، وإنما هم حقا وصدقا من «يستحيون من الله استحياءهم من ذوي الهيبة من قومهم» كما علمنا الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه.. ذلك أن «سمة الخير هي الدعة والحياء، وسمة الشر هي القحة والبذاء» كما يقول الفقيه الماوردي، وهم أيضا أصحاب المروءة والنخوة والوفاء الذين «إذا رضوا لم يدخلهم الرضا في باطل، وإذا غضبوا لم يخرجهم غضبهم عن حق، وإذا قدروا عفوا»

كما يعلمنا أيضا معلم البشرية. وهم يعرفون شرف الخصومة فلا يوغلون في لدد الخصام، ولا يسدون أبواب الرجوع للوئام، ويحفظون حرمات غيرهم، ويتعففون عن الفحش وإيلام الآخرين وتعييرهم بنقاط ضعفهم، ولا ينسون فضل الكبير ولا يداً قدمت إليهم.

ولم يكن شيء من كل ذلك لدى خطيبك السابق صاحب الأملاك والمركز المرموق والعيش الرغد والأسرة التي تليق بمصاهرتكم، وكان كل ذلك. أو معظمه - لدي خطيبك الأول الذي لم تخرجه إهانة أهلك له عن حيائه ورعايته للقيم العائلية والإنسانية. فعسى أن يستفيد أهلك بهذا الدرس القاسي في تقييمهم السليم لمن يتقدمون إليك بعد ذلك، وعسى أن يحاول بعض علماء الاجتماع أن يفسروا هذا الإحساس الطبقي الكريه المتبادل بين أشخاص من شرائح اجتماعية لا تكاد ترى الفروق بينها بالعين المجردة، يتمسكون بشعور الاستعلاء الطبقي بعضهم تجاه بعض.. فتمارس أسرة الفتاة استعلاءها الطبقي الغريب على الخطيب الأول المكافح، ويمارس الخطيب الثاني نفس هذا الإحساس الكريه تجاه أسرة الفتاة.. والجميع في سلة واحدة هي الطبقة المتوسطة الدنيا التي تحتاج لإنهاء مشروع الزواج إلى كفاح سنوات، كما احتاج الخطيب الثاني صاحب الأملاك نفسه إلى عام كامل ليدبر نفقة إتمام الزواج.. فهل من مفسر لهذا الاعتزاز الطبقي الكريه؟

على أية حال، فلقد أراد الله بك خيرا يا آنستي أن وقعت هذه الواقعة بين خطيبك الثاني وأهلك قبل موعد زفافك بأسبوع واحد، فكشفت لك عن وجهه الحقيقي الذي لا يظهر إلا في الغضب، فنجوت من تعاسة كانت تترصدك معه، وربما دفعت ثمنها غاليا من سنوات عمرك.. فالإنسان الذي يقطع كل الخيوط في لحظة واحدة مع من كان على وفاق معهم قبل لحظات ثم يتفجر تجاههم بالفحش والسخيمة كقاذفات اللهب، إنسان لا يؤمن جانبه ولا يمكن أن تستقر سفينة الحياة معه إلا على حساب تنازلاتك المستمرة عن كرامتك وحقوقك، وعلى أساس استعدادك اللانهائي لاحتمال كل أنواع الأذى والإساءة منه، فضلا عن تقلباته المزاجية الحادة..

فاشكري ربك يا آنستي أن أنقذك من هذا المصير، وتعلقي دائما بالأمل في عدالته ورحمته، وانتظري نصيبك العادل من السعادة، وهو لا شك قادم في ظروف أفضل بإذن الله بعد أن عرف أهلك بالثمن الغالي معايير التفاضل الأولى بالاحترام، وبشرط أن تخرجي عن سلبيتك وتدافعي عن سعادتك بقوة وإصرار حين تدعو الحاجة إلى ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سفينة القيادة

«حق الآباء في قيادة سفينة الأسرة حق غير منكور، لكن القيادة الحكيمة حقا هي التي تعرف حدود صلاحياتها ولا تتجاوزها إلى ما ينحرف بها إلى دائرة التحكم والقهر»

شجعني على أن أكتب لك قصتي - وليست مشكلتي - ما قرأته في رسالة» الشيء العزيز« عن تصلب أحد الآباء وعدم مرونته مع أبنائه في شيء قد ييسر عليهم حياتهم جميعا. فأنا سيدة في السادسة والثلاثين، نشأت في أسرة فاضلة عائلها ضابط شرطة مطاع الأوامر في العمل وفي البيت على السواء بلا فروق واضحة بين المكانين.

وساعده على ذلك أن أمي سيدة طيبة حنون مغلوبة على أمرها دائما، فنشأنا - ونحن ثلاث بنات وولد - لا نستطيع مراجعة أبي في أمر من أوامره أو مناقشته فيه، وكانت القاعدة دائما هي: أطع الأمر أولا ثم تذمر كيف شاء لك التذمر في السر، فلن يجدي ذلك شيئا؟

ولست أنكر على أبي أبوته لنا وحرصه على مصلحتنا، لكني أنكر عليه فقط أنه لم يكن يحفل بمعارضتنا أو آرائنا، ورغباتنا فيما يتعلق مستقبلنا وحياتنا الخاصة بعد أن كبرنا وحق لنا أن نتبادل معه الرأي وأن يلين لنا. وهكذا مضت بنا الحياة، وتنقلنا مع أبي من مكان إلى مكان إلى أن استقر بنا الحال في القاهرة.. والتحقت بكلية عملية وتخرجت فيها، وعملت بإحدى الشركات، ثم تقدم لي شاب يعمل بقسم آخر من أقسام الشركة، ولا يكبرني في السن إلا ببضع سنوات، ويشهد له الجميع بأنه إنسان فاضل، فما أن رأيته حتى أحسست بإحساسٍ غامر لم آلفه من قبل، وأنزل الله السكينة والمودة في قلبي له، وتمنيته شريكًا وسندا لي في الحياة، واستخرت الله في أمره، فاستقر في يقيني أنه سيكون لي نعم الزوج ونعم الشريك، وترقبت بخوف وقلق رد فعل أبي تجاهه، فإذا به يثور ثورة عارمة ويقيم الدنيا ولا يقعدها ضده وضدي لمجرد أنني أبديت موافقتي عليه ورغبتي فيه، ولا لشيء إلا لأن هذا الشاب كان قد سبق له الزواج ولم يوفق في زواجه الذي لم يكن مسؤولا عنه لتوتر العلاقة بينه وبين زوجته بسبب عدم إنجابها، مما أدى إلى استحالة العشرة بينهما من جانبها رغم محاولته الحفاظ على سفينة حياته الزوجية بكل السبل، فلم يحفل أبي بشيء من ذلك ولم يكلف نفسه أن يتحرى أخلاقياته ودينه ونشأته العائلية، وإنما رفض الفكرة من أساسها لأنه مطلق، وهذا وحده سبب كاف لديه لرفضه بلا مناقشة.

وعلى خلاف عادتنا معه في عدم مراجعته في شيء، توسلت إليه أن يعطيني فرصتي في السعادة كما أتصورها.. وأن يستجيب لدموعي ويضعه تحت الاختبار

فقط، فيتحرى عنه وعن أخلاقياته ثم يبني رأيه على أساس سليم، فلم يأبه لدموعي وتوسلاتي، وظل مصراً على رفض مناقشة الفكرة من أساسها، وهددني بالويل والثبور إذا سمحت لهذا الشاب بالاتصال بي في العمل.. وهدده أيضا إذا لم يكف عن محاولة الاتصال بي، ولم تفلح محاولات أمي الطيبة المغلوبة على أمرها معه في أن تزحزحه قيد أنملة عن رأيه، ولم يجسر إخوتي على معارضته مكتفين بالتعاطف العاجز معي، ولم يهدأ أبي إلا بعد أن سعى لنقلي من الشركة إلى عمل آخر حتى يسد على هذا الشاب باب الاتصال بي، ولم أجد في النهاية مفرا من الاستسلام لمصيري، فاعتذرت لهذا الشاب، وعدت لحياتي وفي قلبي مرارة تجاه أبي لا أستطيع مقاومتها، ولم أجد وسيلة للتنفيس عنها إلا في رفض كل من تقدم لي بعدها وشعرت بحماس أبي له وموافقته عليه. وبعد عامين من الرفض المتواصل أجبرني أبي من إجبارا على الزواج «الشخص الرائع« الذي رأى فيه كل المواصفات المناسبة لى والجدير حقا مصاهرته، فهو شاب من أسرة ملائمة ويعمل عملا مرموقا ومستريح ماديا ولم يسبق له الزواج، وسد أبي عليّ كل أبواب الرفض، فسلمت أمري لله، وتم عقد القران وأنا لا أستطيع تحديد مشاعري تجاه ذلك الشخص الذي يتهلل أبي لرؤيته ويعامله بحفاوة بالغة، كأنما يقول لي: أين هذا من ذاك الذي كنت تريدين الارتباط به؟

وبعد فترة خطبة قصيرة تم الزواج بلا مشاكل، فكل شيء جاهز والإمكانيات متوافرة.. وأبي فخور بحسن اختياره لى ويلبي للشاب كل مطالبه، وبدأنا حياتنا الزوجية، فلم تمض شهور حتى تكشف لي الشخص الرائع الذي اختاره لي أبي بحكمته وخبرته الطويلة في الحياة، عن إنسان همجي لا يرعى الله فيّ ويهينني ويضربني ويسقيني كؤوس الذل والعذاب، ويصب فوق رأسي إهاناته عند كل خلاف عابر.. ولا يخص بها أحدا - للعجب ـ سوى أبي الذي يتيه به فخرا ويراه أفضل الرجال في العالم، وأنا أتحمل وأحاول إنقاذ سفينة حياتي حتى لا أواجه الفشل وأحمل لقب مطلقة، وشاء ربي لحكمة يعلمها إلا أنجب من زوجي هذا طوال ثلاث سنوات من الزواج، طفنا خلالها على الأطباء، وأثبتت كل التحاليل خلونا معا من عوائق الإنجاب.

ثم توفي أبي - رحمه الله وغفر له - وتركني أسيرة بين يدي ذلك الإنسان الهمجي الظالم، فلم أجد مبررا لمواصلة الاحتمال، وتجرأت بوفاة أبي على طلب الطلاق من زوجي، وأصررت عليه وقبلت كل شروطه المجحفة.. ورضيت بأن يسلبني كل حقوقي لأتخلص من عذاب الجحيم الذي عشته معه ثلاث سنوات، وخرجت من تجربتي المريرة محطمة فاقدة الثقة بنفسي ومن حولي جميعا، وسلمت أمري لربي، وشغلت نفسي بعمل يفوق طاقتي واحتمالي لكي أستجدي النوم بالإرهاق الشديد في العمل، ولم أندم لحظة واحدة على تخلصي من حياتي مع هذا الإنسان، وإن كنت قد بكيت بمرارة تحسر على سنوات العمر التي ضاعت في المعاناة، وعلى صحتي التي تدهورت وجمالي الذي ذبل من الأرق والهموم، حتى كنت أنظر في المرأة فأنكر نفسي وهيئتي، لكن أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، فلم تمض بضعة شهور أخرى إلا وفوجئت بالشاب الذي أرادني وأردته ورفضه أبي

بجفاء وكبرياء قبل خمس سنوات يتقدم لي مرة أخرى، فقبلته على الفور ورحبت به أمي وإخوتي وعائلتي، وفتحت لي الدنيا ذراعيها بعد أن كانت تدفعني عنها، فلم تمض أسابيع حتى كنا قد تزوجنا وضمنا بيت جديد، وإذا بالشخص غير الملائم لي في نظر أبي - سامحه الله - يتكشف لي عن إنسان طيب حنون يعرف ربه حق معرفته، ويرعى الله فيّ ويكرمني ويحيطني بعطفه وحنانه، فينسيني جراح تجربتي الأولى، ويزيل آثار المرارة من نفسي، وإذا بي أعرف لأول مرة أن الحياة الزوجية سكن ومودة ورحمة وعطف واحترام متبادل، وليست زجرا ومكابرة ومعايرة وسبابا وضربا وإهانة للزوجة وأبيها وأهلها، كما رأيتها مع زوجي السابق، وإذا بي أستعيد ثقتي بنفسي وبالناس وبالحياة، فأغادر عملي وأنا أتعجل العودة للبيت، بعد أن كنت في زواجي السابق أتمنى لو أمضيت الليل أيضا في عملي، وإذا بربك يتم علينا نعمته فأنجب طفلا وطفلة في غاية الجمال والروعة هدية منه جل شأنه لكي تكتمل بهما سعادتنا وتتعمق روابطنا إلى الأبد إن شاء الله، وتلك جوائز الصابرين الراضين بأقدارهم.

لقد مضى على زواجنا الآن ست سنوات لم أشعر بمرورها، في حين شعرت بأنني قد ساكنت - ولا أقول عاشرت - زوجي الأول ثلاثين سنة في زواج لم يدم سوى ثلاث سنوات فقط، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يجمل عشرتنا حتى نهاية الرحلة، وأن يكون وجه زوجي هو آخر ما أراه من مشاهد الدنيا حين تحل النهاية المحتومة، وأن يوفقنا الله لإسعاد أبنائنا وتهيئة أفضل الظروف لهم، وإني لأتساءل يا سيدي: لماذا يصر بعض الآباء على أن يستقلوا سفينة منفردة يقودونها وحدهم وتتبعها سفن الأبناء راغمة، حتى ولو كانت تسير إلى الهاوية؟.. أليس من الأفضل أن يلحق الأب أبناءه معه بركبه وسفينته ويكون الأمر شورى بينهم، خاصة بعد أن يبلغوا سن الرشد، لكيلا يدفع الأبناء ثمن أخطاء بعض الآباء من حياتهم وسعادتهم كما حدث معي، خاصة وأن كل ابن آدم خطاء ولو كان أبا، وليس هناك من هو معصوم من الخطأ.. فلماذا لا يضع بعض الآباء نظرة الابن لمستقبله وحياته في اعتبارهم وهم يقررون له ما يشاء من قرارات، وقد تكون للابن نظرة أرجح أو أقرب لحياته عن نظرة غيره لو وضعت في الاعتبار؟

إنني أردد في ختام رسالتي هذه ما قلته أنت في تعليقك يا سيدي على رسالة «الشيء العزيز» من أنه «رحم الله امرأ أعان ولده على بره ولم يجعل من رحيله عن الحياة بشيرا بانفراج أزمات أبنائه ومشاكلهم». وأقول: سامح الله أبي وغفر له.. وغفر لكل الآباء الذين لا يتعاونون ولا يتفاهمون مع أبنائهم على اختيار ما يرونه في صالحهم بالمودة والتفاهم والشورى وليس بالقهر والتسلط والإجبار، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

قد تصحح الحياة أحيانا بعض أخطائها المؤلمة، فتجمع بين الإنسان وبين من ضل الطريق إليهم، وما زال في العمر والقلب بقية لتذوق جمال الحياة، فتصبح بذلك فترة التيه والمعاناة وكأنما كانت تدريبا قاسيا على اكتشاف من يصلحون له ويصلح لهم، وعلى التفرقة بين ما يستحق الاهتمام به من أهداف الحياة الحقيقية الجديرة بالاهتمام وبين ما لا يستحق السعي إليه.. أو بكاء الندم عليه إذا لم يدركه.

ولأنه ليست هناك معاناة إنسانية بلا جدوى، فإن من عرف مرارة الشقاء في حياة سابقة يزداد تقديرا لأهمية السعادة الحقيقية حين تتاح له أسبابها.

والسعداء من البشر حقا يا سيدتي هم من لا يطول إبحارهم في بحر الشقاء قبل أن تعيدهم أمواج الحياة سريعا إلى شاطئ الأمان. وقد كان من حظك في الحياة ألا تطول غربتك طويلا عمن كان مقدرا لك ألا تسعدي إلا معه منذ البداية، فعلمت بالتجربة المريرة أن الدنيا كلها لا تسع متباغضين، وأن شبرا من الأرض يسع متحابين كما تقول الحكمة العربية القديمة، وعرفت أيضا بدرس التجربة أن سكينة القلب إلى من يحب ويهوي أهم من كثير من أهداف الحياة غير الجديرة بالعناء.

أما التعساء حقا فهم من لا تترفق بهم الحياة ولا تتيح لهم فرصة تصحيح الأخطاء أبدا إلا بعد فوات الأوان، وإلا بعد أن يصبح تصحيح الخطأ نفسه خطأ أبلغ ضررا بالمحيطين به من استمراره وتحمل عنائه، أو بعد أن يصبح هذا التصحيح نفسه جناية تجني على سعادة الأعزاء، أو تهدد أمانهم، أو يصبح تغييرا هائلا يعجزون عنه نفسيا أو اجتماعيا، فيواصلون الطريق راغمين ومحتسبين، ومؤملين ألا تنساهم رحمة الله إلى ما لا نهاية.

فهنيئا لك ما سمحت لك به الحياة من فرصة للمراجعة وتصحيح الأخطاء، وطوبى لمن ينتظرون أن تحل بهم رحمة السماء حين يشاء الله أرحم الراحمين. أما تساؤلك عن بعض الآباء الذين يصرون على أن ينفردوا وحدهم بسفينة قيادة تتبعها راغمة سفن الأبناء ولو مضت بهم إلى الهاوية، فتساؤل مرير وحكيم في نفس الوقت، ولسنا في حاجة لأن نستعير من أدبيات الغرب الحديثة ما نثبت به حق الفتاة في أن تختار لنفسها من تشاركه رحلة الحياة، مسترشدة في ذلك بحكمة الأب وخبرة الأهل الثمينة بالحياة.

فالمؤلم حقاً هو أن كثيرا من المعاناة كان من الممكن أن يتجنبه الأعزاء لو التزم البعض بقيم دينهم الصحيحة.. والأكثر حرصا على سعادة الإنسان وحريته من بعض النظريات الحديثة.

فالشرع يمنع إكراه المرأة - بكرا كانت أم ثيبا. على الزواج، ويمنع إجبارها على من لا رغبة لها فيه، ويجعل العقد عليها قبل استئذانها وموافقتها الحرة لا الاضطرارية غير صحيح عند جمهور الفقهاء الذين لم يسترشدوا في ذلك بكتب سيمون دي بوفوار ولا ستاندال عن الحب والزواج، وإنما بتعاليم دينهم القويم وبهدي المربي الأعظم صلوات الله وسلامه عليه الذى جاءته فتاة وقالت له: إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته «أي ليرفع بي من قدره وشأنه»، فجعل

الرسول الكريم الأمر إليها، إن شاءت أقرت أباها على ما فعل وإن شاءت نقضته، لأنه لا يصح زواجها على غير إرادتها، فقالت له: قد أجزت صنع أبي، ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء.

أي ليس للآباء أن يرغموا بناتهم على من لا يردن، فكيف بمن، برغم ابنته الشابة الرشيدة على زواج من لا تريد ولا ترغب، بعد 14 قرنا من هذا التوجيه؟

يا سيدتي.. إن حق الآباء في قيادة سفينة الأسرة وحماية ركابها من مخاطر الإبحار وسط جنادل الحياة وعثراتها حق غير منكور، لكن القيادة الحكيمة حقا هي التي تعرف حدود صلاحياتها المشروعة ولا تتجاوزها إلى ما ينحرف بها إلى دائرة التحكم والقهر والإجبار، كما أنها أيضا القيادة التي لا تتجاهل آراء «الرعية» ولا رغباتهم أو حقهم العادل في الاختيار لأنفسهم حين تتباين الآراء وتختلف.. وليس للآباء على أبنائهم الراشدين في النهاية إلا حق النصح والإرشاد بخبرتهم في الحياة، ورغبتهم التي لا يرقى إليها، شك في خير أبنائهم.. والأبناء الأسوياء الفضلاء هم وصلاحها الذين لا يتجاهلون أيضا حق الآباء الديني والإنساني والعاطفي عليهم في ألا يشقوا عليهم عصا الطاعة.. وألا يتجاهلوا حكمتهم وخبرتهم.. وألا يكفوا عن محاولة نيل رضاهم وتأييدهم ومباركتهم لخططهم في الحياة حتى ولو لم تحظ برضا الآباء عليها.. ولقد فات والدك كل ذلك، فقاد سفينتك إلى هاوية الزواج التعيس والمعاناة، لكن إرادة الله كانت فوق إرادة البشر.. فعدت إلى مرفأك الصحيح وغردت طيور الحب في عشك السعيد من جديد.. فانسي لأبيك ما فعل بحياتك.. ولا تحملي له في نفسك ما تحملين له الآن من مرارة راسخة في الأعماق.. فهو لم يرد لك - رغم كل شيء- إلا سعادتك كما تصورها، وما أكثر ما تخيب حسابات الإنسان لنفسه ولأعزائه، ولو تحرى كل أسباب الرشاد، ولكن حسن النية خير شفيع للصفح والنسيان في النهاية. واستغفارك لأبيك قربي عادلة تتقربين بها إلى الله سبحانه وتعالى ليحفظ عليك سعادتك ويجنبك عثرات الطريق.

أما خير ما تفعلين بحياتك وأطفالك فهو ألا تكرري خطا أبيك في حقك معهم، وأن تقدمي لهم خير ما يملك أبوان أن يقدماه لأطفالهما، وهو طفولة سعيدة يتنفسون فيها أنفاس الحب والرحمة والتعاطف بين آبائهم، فيخرجون إلى الحياة قادرين على السعادة.. وراغبين في تكرار «مثال» آبائهم وأمهاتهم في الحياة السوية الآمنة، المعطرة بعطر العطف والحب للبشر ولكل شيء جميل في الحياة بإذن الله. وشكرا لك على رسالتك الجميلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أصوات الحياة

«إن الذين يعيشون وفي أذهانهم
أنه ليس هناك غد أفضل، فإنهم لا
يجدون هذا الغد أبدا حين يصلون
إليه، لأنهم لم يؤمنوا به منذ البداية
ولم يتمسكوا بالأمل فيه»

منذ عشر سنوات وأنا أفكر في الكتابة إليك.. وفي كل مرة يشغلني شاغل هام عن ذلك، أو أؤجل أنا قرار الكتابة ترقبا لتطور هام في قصتي أتمنى أن أبلغك به، وأخيرا آن لي أن أكتب وأقول لك: إنني شاب في الثالثة والثلاثين من عمري، نشأت في أسرة بسيطة يبذل عائلها الموظف الصغير بإحدى المصالح الحكومية كل ما في وسعه لتلبية احتياجاتها.. وكنت أول أبناء هذه الأسرة، فتركزت عليّ الآمال في أن أحقق لنفسي شأنا كبيرا في التعليم والحياة، وكنت متفوقا في دراستي بالفعل، لكني استنفدت خلال عام الثانوية العامة معظم طاقتي في الاستذكار طوال شهور السنة الدراسية، فما أن جاء موعد الامتحان حتى كنت قد أصبت بالإجهاد الشديد ولم أستطع تحقيق حلم حياتي في الحصول على مجموع يؤهلني لكلية الطب البشري، ورغم سعادة أسرتي بالمجموع الكبير نسبيا الذي حققته ورشحني للالتحاق بكلية الطب البيطري، إلا أنني كنت حزينا لفشلي في تحقيق أمنيتي القديمة. والتحقت بكلية الطب البيطري على أمل واحد هو أن أستطيع بعد التخرج فيها الدراسة بإحدى كليات الطب والعمل كطبيب بشري فيما بعد، وبدأت دراستي باجتهاد شديد واضعا هدفي الأساسي نصب عيني، وتفوقت كعادتي في الدراسة، لكني بدأت خلال العام الثاني من دراستي الجامعية أحس بطنين خفيف. لكنه متصل. في أذني، وأحاول علاجه بالأسبرين والمسكنات، وواصلت حياتي ودراستي، ومن حين لآخر يشتد الطنين الخفيف في أذني ويستمر بالساعات.. شيء أشبه بخروشة الراديو القديم أو بخشخشة احتكاك الورق، لكنه يوش في أذني طوال الوقت.. وينهكني. وبعد أن كان الطنين يزورني كل بضع ساعات بدأ يلازمني طوال اليوم ولا أستريح منه إلا إذا استسلمت للنوم، ولا أفتح عيني في الصباح إلا عليه إنه عذاب رهيب لا تتخيل وطأته، وأدعو الله أن يحميكم ويحمي الجميع منه، وقد راح هذا الطنين يتصاعد ويرتفع في أذني من شهر إلى شهر كأنك ترفع صوت الراديو القديم الذي لا تصدر عنه سوى الخروشة المستمرة، وأنا أدور بين الأطباء بلا فائدة، وكل منهم يشخص مرضى تشخيصا مختلفا وبعد رحلة طويلة من العناء أجمعوا على أن الأذن الخارجية والأذن الوسطى عندي سليمتان، وبالتالي فإنها ربما تكون حالة نفسية وستختفي في الوقت المناسب. وانتظرت اختفاءها فلم تختف، وإنما استمرت وتزايدت، وبدلا من أن أستريح من هذا الطنين القاتل المستمر ليل نهار، بدأت أشعر بأنني أفقد سمعي تدريجيا وأشعر بثقل غامض في رأسي، ثم فقدت قدرتي على تدوين المحاضرات أو الدروس العملية في كليتي، فراح أصدقائي في الكلية يكتبونها لي

نيابة عني، وبفضل مساعدتهم لي وانتظامي في الحضور رغم معاناتي نجحت في عامي الجامعي الثاني وحصلت على أعلى التقديرات، ولأول مرة فإني لم أسعد بتفوقي في الدراسة رغم سعادة أسرتي به، فلقد فقدت السمع نهائيا مع ظهور النتيجة وحل الصمت القاتل الثقيل محل الطنين الدائم المعذب في أذني، وبقى الإحساس بالصداع والثقل في رأسي.. ثم ساءت حالتي أكثر من ذلك، فتأثر اتزان حركتي ولم أعد قادرا على المشي بطريقة طبيعية.. وضعف ذراعاي وأصابع يدي فعجزت عن الإمساك بالقلم، وتأثر نطقي للكلمات والأصوات، وبعد عام طويل من العلاج بقسم السمعيات بطب عين شمس، كشف فحص المخ بالكمبيوتر عن وجود ورمين في مراكز السمع بالمخ، ونصحني الأطباء بضرورة السفر إلى لندن لاستئصالهما في أقرب وقت قبل أن يتفاقم الخطر، وصدمت حين أدركت ذلك. وتساءلت: وأنى لشاب بسيط مثلي أن يستطيع ذلك؟ لكن ما ظننته مستحيلا قد تحقق بالفعل، وخلال وقت قصير. فقد سعي أبي الموظف الحكومي البسيط وساعده الجميع في طلب علاج على نفقة وزارة الصحة بالخارج، وصدر القرار وسافرت بالفعل إلى لندن وأجرى لي جراح بريطاني للمخ والأعصاب جراحة استئصال الورمين، وبعد نجاح الجراحة قال لي الطبيب الإنجليزي بواقعيته المجردة: إني يجب ألا أفكر في أن أصبح طبيبا بشريا ذات يوم أو حتى طبيبا بيطريا، وأنه من الأفضل لي أن أتوقف عن الدراسة بكلية الطب وأن أمارس عملا بسيطا لا يحتاج مني إلى مجهود ذهني أو عضلي.

ورغم نجاح الجراحة فإنني لم أتخلص من الآلام والمضاعفات كما أني لم أشف من ضعف اتزان الحركة وشلل عضلات الوجه وضعف الذراعين وأصابع اليد. وقيل لي: إن شفائي من كل هذه الآثار رهين بانتظامي في العلاج الطبيعي وصبري عليه، ورجعت إلى مصر وأنا أفكر فيما قاله لي الطبيب البريطاني وأسأل نفسي: هل من تحقيق حلمي القديم في التفوق والعمل كطبيب بشري ذات يوم؟ وفي حيرتي وآلامي قررت فجأة أن أنسى كل ما قاله لي الطبيب الإنجليزي وأن أتصرف وأخطط لحياتي كما كنت أخطط لها من قبل تاركًا لله سبحانه وتعالى أن يختار لي بحكمته التي تخفي عن الأفهام ما يشاءه من مصير. وبدأت رحلة العلاج الطبيعي الطويلة، ولا أستطيع - وحتى نهاية العمر - أن أنسى كم كان أبي وأمي وإخوتي وأصدقائي كرماء وعظماء في صبرهم عليّ إلى ما لا نهاية، فطوال عام كامل كانت أمي الطيبة ترافقني كل يوم إلى العلاج الطبيعي وتقضي الوقت الذي يستغرقه العلاج بجواري تشجعني على أداء المطلوب مني، ولا أرى منها طوال الوقت سوى الابتسامة الجميلة الدائمة التي تخفف عني ما أحسه من عناء، أما أبي الذي لم يكن يمضي يوم قبل ذلك دون أن يتشكى فيه من أعراض مرض مزمن قديم يعاني منه، فلقد كف الشكوى من مرضه تماما ولم أر منه بعد ذلك إلا التهوين والرغبة في أن يخرجني من دائرة اليأس، كأنما قد شفى بقوة سحرية من مرضه مع أنه لم يشف منه أبدا!

فهل كنت يا سيدي أستطيع أن أكون أقل صبرا أو شجاعة من هذين الأبوين العظيمين؟ لقد عدت بعد شهور قليلة إلى الدراسة وحضور المحاضرات وأنا

أمشي بطريقة غير طبيعية وغير متزنة وتلفت أنظار الآخرين، ورجعت إليها وأنا لا أستمع أي شيء يدور حولي، لكني أرى والحمد لله.. وأفهم.. وأستطيع أن أتكلم أيضا حتى ولو كان النطق مختلفا بعض الشيء، فراح أصدقائي وزملائي العظام يتعاملون معي بالكتابة والإشارة وينقلون لي المحاضرات ويشرحون لي ما لا أفهمه منها، ولا تسلني كيف فعلوا ذلك وأنا لا أسمعهم، فلقد كانوا يستخدمون معي كل الوسائل البصرية والتحريرية، بل وخفة الدم المصرية أيضا في إبلاغي بما يريدون، فإذا بي أنجح في الامتحان وأحصل على أعلى التقديرات، وأتخرج في كليتي وسط سعادة الجميع وفخرهم بي من أبي وأمي وإخوتي إلى أصدقائي وزملائي، حتى من لم يوفقهم الحظ للحصول على تقديرات عالية مماثلة في البكالوريوس. وبعد تخرجي عملت بمساعدة أبي في أحد معاهد البحوث المتخصصة في دراستي كباحث، وعملت أيضا أمينا للمكتبة به، وبعد شهور قليلة أصبحت صديقا لكل من يعملون بالمعهد أو يترددون عليه، أحبهم ويحبونني، وأساعدهم عن طريق عملي في المكتبة ومعمل التحليل فيما يطلبون من بيانات ومعلومات، ويساعدونني فيما أعجز عنه بسبب ظروفي الخاصة، ولست أريد أن أطيل عليك أكثر من ذلك؛ لهذا فإني سأعبر ثماني سنوات من الزمن تلت تخرجي في كليتي لأطلعك على وضعي في الحياة الآن، فأقول لك: إن هدايا السماء التي تسميها أنت بجوائز الصابرين والراضين بأقدارهم قد هطلت على خلال السنوات الماضية بلا حساب، فوفقني الله سبحانه وتعالى إلى إنسانة تستهدى بقيم الدين علما وسلوكا وخلقا، تفهمت وضعي من البداية فكانت خير عون لي على ظروفي وحياتي، كما حصلت على الماجستير في تخصصي بتقدير مشرف للغاية والحمد لله، ووفقت أيضا للعمل كأخصائي للتحاليل الطبية في مستشفى خاص بمساعدة زملائي لمدة 5 من سنوات كاملة، أما أهم الهدايا وأعظمها فقد هبطت على من السماء حين وهبني الله ابنا جميلا شاءت إرادته سبحانه وتعالى أن يكون شديد التماثل معي في الشكل والهيئة، فذكرني بطفولتي التي كدت أنساها في محنة المرض، وأضاء حياتي وحياة أبي وأمي. ورغم مخاوفي البديهية عليه من أن يواجه ذات يوم ما تعرضت أنا له من مرض، إلا أنني أنفض من رأسي هذه المخاوف حين تزورني من حين لآخر وأدعو الله الكريم أن يحفظه لي ويجنبه كل ما عانيت منه في حياتي، إنه سميع مجيب الدعاء. كما حصلت أيضا - بفضل الله وتوفيقه، وبفضل إصراري على تحقيق الحلم القديم - على درجة الدكتوراه في تخصصي، ونلت من شهور - بتوفيق آخر من الله- درجة مدرس باحث بالمعهد الذي أعمل به، وتقدمت لوزارة الصحة الاعتمادي كأخصائي للتحاليل الطبية، فاعتمدتني على الفور لممارسة هذا التخصص الذي يعتبر من أرقى التخصصات الطبية في العالم، وأصبح من حقي أن أدير معملا للتحاليل حين أريد ذلك، كما وفقني الله كذلك لبدء أول خطوة على طريق إنشاء مركز طبي خيرى صغير لخدمة البسطاء من الناس، والحمد لله كثيرا على كل شيء، فإني أكسب الكثير من عملي ولا أدخر حتى الآن مليما واحدا للمستقبل، لأني أنفق كل ما يزيد عن متطلبات واحتياجات أسرتي في أوجه الخير شكرا لله على نعمته وعرفانا مني بفضله ومنته على. صحيح أنني يجب أن أدخر بعض دخلي لأؤمن به مستقبل ابني.. لكني

لست قلقا من هذه الناحية، فلسوف يتسع المجال أمامي قريبا، وسوف أستطيع أن أؤمن مستقبل ابني العزيز بغير أن أتوقف عن مد يد المساعدة للآخرين في المستقبل القريب بإذن الله.. وإذا كانت المخاوف تعاودني من حين لآخر من احتمال أن يعاودني المرض.. أو يرجع الورم مرة أخرى ويدفعني ذلك للجوء إلى زملائي الأطباء الذين أتعامل معهم، ولأن أجري فحوصي في أكثر من معمل ولا أطمئن إلى سلامتها إلا إذا توافقت كل الفحوص، إذا كنت أفعل هذا فعلا فليس من الوساوس أو القلق المرضى الذي لا داعي له، وإنما فقط لأن عملي في مجال التحاليل الطبية يطلعني على الكثير من حقائق المرض وأسراره، ولأن من يعرف أكثر يخاف أكثر كما قلت أنت ذات مرة في أحد ردودك. والاحتياط واجب فعلا لكنه لا ينبغي أن يفسد علينا استمتاعنا بالحياة، ولا أن يعمى أبصارنا عما أنعم الله به من نعم جليلة وكثيرة، وإني حين أنظر الآن إلى نفسي بعد ١٠ سنوات كاملة من دخولي عالم الصمت الذي غابت عني فيه أصوات الحياة، وأرى بعين الذكرى والخيال نفسي وأنا طالب صغير بكلية الطب البيطري يتملكه الحزن والأسى لأن مرضه المفاجئ سوف يحول بينه وبين تحقيق حلمه القديم في أن يصبح طبيبا بشريا ذات يوم، ثم أنظر إلى نفسي الآن وقد تحقق لي أكثر مما تمنيته لنفسي ومما حلمت به في العلم والعمل والحياة الخاصة، لأقول لك وبكل الصدق: إنني أشك كثيرا في أنني كنت سأنجح في تحقيق ما حققت لحياتي الآن من توفيق ونجاح لو لم تمتحني الأقدار بمحنة المرض والإعاقة التي استنفرت في إرادة تحدي المرض والظروف، وأظهرت قدراتي الحقيقية على العمل والتفوق والإجادة لأثبت لنفسي قدرتي على أن أكون ناجحا في الحياة بالرغم مما أصابني من مرض.. وإذا كان لي مطلب أو رجاء عندك في النهاية فهو أن تواصل جهدك وتبنيك لمشاكل إخواني المعاقين وأصحاب الظروف الخاصة في مصر، وهم لا يقلون أبدا عن ستة ملايين إنسان، ويزيد عددهم على عدد سكان بعض الدول الصغيرة، مناشدا إياك أن تواصل المطالبة بحقوقهم وبإنصاف المجتمع لهم، وأن تقول لإخواني من الأصحاء إن كل مشاكل الحياة التافهة لا تساوي شيئا إلى جانب مشاكل الحياة برفقة إعاقة دائمة ومزمنة، لكي يرضوا عن حياتهم وظروفهم ويلتمسوا العذر والتقدير لغيرهم من أصحاب الظروف الخاصة..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

حين نشرت الكاتبة الإنجليزية ذائعة الصيت أجاثا كريستي مذكراتها منذ حوالي ثلاثين عاما، قالت في مقدمتها: إنها لم تلتزم فيها بترتيب زمني لوقائع حياتها، وإنما أرادت أن «تتذكر فيها ما يسعدها تذكره، وتتجاهل ما يؤلمها أن تستعيده أو تتذكره»، وقالت تأكيدا لذلك: «لقد تذكرت ما أردت أن أتذكره، ونسيت ما أردت أن أنساه!».. لهذا فقد قال أحد النقاد الإنجليز عن مذكراتها: «إنها ترنيمة جميلة لبهجة الحياة أكثر منها مذكرات شخصية»! ولقد تذكرت عبارة هذا الناقد

الإنجليزي وأنا أقرأ رسالتك الجميلة هذه رغم اختلاف الوقائع والظروف، فرسالتك هذه يا صديقي التي تذكرت أنت فيها كل ما يؤلمك تذكره هي رغم ذلك ترنيمة أخرى لبهجة الحياة.. والأمل.. والرضا بكل ما تحمله لنا المقادير، ودعوة مخلصة لأن يكتشف كل إنسان «الأشياء الجميلة» التي يستطيع أن يحققها لنفسه وحياته إذا استمسك بالأمل والثقة في النفس وفي عدالة ما يسعى إلى تحقيقه من أهداف الحياة.

فلا شك أنه من دلائل العجز أن يكتفي الإنسان بالرثاء لنفسه واجترار آلامه وأحزانه، ولوم الظروف القاسية التي حالت بينه وبين تحقيق بعض ما كان يتمناه لنفسه، كما أنه من دلائل العجز أيضا أن يتحجره الإنسان أمام بعض أمنياته ورغباته التي حالت الظروف بينه وبينها، ويتوهم أنه لن تكون له حياة بغيرها.. فأهداف الحياة كلها يمكن تلخيصها في كلمات قليلة هي: السعادة في الحياة الخاصة.. والتوفيق في الحياة العملية.. مهما كان نوع العمل الذي يمارسه الإنسان، ومهما كان متوافقا مع أحلامه الوردية القديمة لنفسه أو متعارضا معها. فالعمل وسيلة لتحقيق الذات وتأمين متطلبات الحياة، وليس هدفا في حد ذاته لا تتحقق السعادة للإنسان إلا بممارسة بعض أنواعه وحدها دون غيرها. وأهداف الحياة هي دائما كالميادين الدائرية التي تصب فيها طرق عديدة قادمة من اتجاهات مختلفة، ويستطيع الإنسان دائما إذا وجد أحد هذه الطرق مسدودا أمامه بالعقبات أن يسعى إلى نفس الهدف عبر طريق ثان أو ثالث أو رابع، يصل به في النهاية إلى الغاية المطلوبة أو قريبا منها، فإذا أدى الإنسان واجبه تجاه نفسه ولم يقصر في بذل الجهد والعرق لبلوغ أهدافه، ثم لم تسمح له الحياة ببلوغ نفس النقطة التي بلغها غيره.. أو طالما تمناها لنفسه، فليست كارثة ولا هي نهاية الحياة أو قمة الشقاء، فلقد اختارت له السماء غير ما اختار لنفسه، ويستطيع هو أن يتعزى عما عجز عنه بما ، أتيح له من أسباب التعويض العديدة التي تضيء حياته كالتوفيق والسعادة في الحياة الخاصة وحب الآخرين له وتمتعه بنعمة الصحة والأهل والصداقة، وبالرضا عما أتاحته له الحياة من أسباب أخرى، وكثيرا ما قادنا خطانا إلى طرق مسدودة شقينا بعجزنا عن اجتياز عقباتها، ثم كشفت لنا تجربة الحياة بعد ذلك أن ما اتخذناه من طرق بديلة مرغمين قد قادتنا إلى غايات أهم وأسمى مما تحرقنا شوقا لأن نصل إليه وبكينا طويلا حين حرمنا منه، ولعل هذا ما عنيته أنت حين قلت في رسالتك إنك تشك كثيرا في أنك كنت تستطيع أن تحقق لنفسك بعض ما حققته لو لم تعترض حياتك محنة الألم والإعاقة وتنحرف بك عن الطريق الذي تمنيته في البداية لبلوغ أهدافك في الحياة، {وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[2]صدق الله العظيم.

ولأننا لا نعلم؛ فإننا قد نحزن لأنه قد فاتنا بعض ما تمنيناه لأنفسنا، ولأنه سبحانه وتعالى يعلم، فقد ينتظرنا الخير الكثير في نهاية الطريق إذا رجعنا إلى الرضا.. واستنفرنا قوانا وقدراتنا وسعينا إلى أهداف بديلة أو قريبة من أهدافنا السابقة، وبذلنا الجهد والعرق وكففنا عن اليأس والعجز ولوم الظروف، وهذا ما فعلته أنت

يا صديقي في حياتك، ويحق لك أن تفخر به وتعتز. وإذا كنت قد سعدت وأنا أقرأ رسالتك بكل ما حققته لنفسك بإرادتك وكفاحك النبيل من تقدم في الحياة العلمية والعملية، فلقد سعدت أكثر وأكثر ما أكرمتك به الحياة من توفيق وسعادة في الحياة الخاصة.. فهذا هو التوفيق العظيم حقا يا صديقي الذي تستحقه، وبغيره لم يكن لأي توفيق آخر أن يعوضك عن معاناتك، فلا شك أنك تستحق هذه الإنسانة المتدينة التي كانت عونا لك على الظروف المؤلمة، كما تستحق أيضا هبة السماء الكريمة لك في هذا الطفل الجميل الذي يذكرك بطفولتك، وأرجو الله أن يحفظه لك ويتم عليك نعمته، ولا شك كذلك في أنك إنسان مفطور على حب الحياة والبشر، وإلا ما أحبتك الحياة وأحبك البشر من أصدقاء وزملاء في الكلية وفي العمل.. فكاره الإنسان مهما تخفى بأحقاده أو خدع البعض مؤقتا لا يمكن أبدا أن يكسب حب الآخرين له أو يستمتع بنعمة الصداقة الحقيقية ودفئها. ولقد كان الدعم النفسي الذي حظيت به من أبويك العظيمين ومن أصدقائك وزملائك من أهم أسباب تقدمك في طريق الشفاء، أما أهم أسباب تقدمك على طريق تحقيق أهدافك في الحياة فلقد كان في رأيي هو تمسكك الدائم بالأمل في غد أفضل، وإيمانك العميق بهذا الغد.. فالذين يعيشون حياتهم - كما يقول كاتب أمريكي معاصر- وفي أذهانهم أنه لن يكون هناك غد أفضل.. فإنهم لا يجدون هذا الغد أبدا حين يصلون إليه، لأنهم لم يؤمنوا به من البداية ولم يتمسكوا بالأمل فيه، أما أنت يا صديقي فلقد وجدته حين وصلت إليه لأنك لم تفقد الرضا بظروفك ولا الإيمان بنفسك وبحقك في هذا الغد الأفضل ولا الأمل فيه.. وشكرا لك على هذه الترنيمة الجميلة في حب الحياة التي تتردد أصواتها البهيجة في قلبك بدلا من أذنيك، وشكرا لك لإحساسك النبيل بمشاكل المعاقين.. وعهدي معك ألا أكف يوما عن مطالبة المجتمع بإنصافهم ورعاية حقوقهم عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القنبلة الرهيبة

«كل خروج على مألوف الحياة
وما تراضى عليه البشر من
أعراف وتقاليد ونظم اجتماعية
مستقرة، هو ،في النهاية مغامرة
محفوفة بالمخاطر، ولابد أن تكون
تَبعاتها ثقيلة على من يقدم
عليها!»

هذه هي المرة الأولى التي أكتب فيها إلى بريد الجمعة، وما كنت أظن أنه ستواتيني الشجاعة ذات يوم لأن أكتب إليه. وقد دفعني إلى ذلك ما قرأته في رسالة العمر الضائع للأم التي تشكو من ابنها الذي أصر على أن يقيم حفل زفافه وهي ما زالت في مرحلة النقاهة إثر إجراء جراحة خطيرة لها. فأنا أم جامعية لثلاث بنات رائعات علما وخلقا وجمالا، وزوجة لرجل ناجح متدين، ونحن من عائلة محترمة، بمعنى أن كل أفرادها متعلمون ونعيش في مستوى فوق المتوسط من الناحية المادية، وقد تقدم لإحدى بناتي شاب ممتاز في كل شيء، إلا أن أسرته تقل عن أسرتنا في المستوى المادي والاجتماعي. ولأنني أم لبنات فإني لم أتوقف أمام ذلك كثيرا، وأتممنا الخطبة، ثم عقدنا القران على أن يتم الزفاف بعد عام آخر.

ومضت الأمور على نحو جميل، وأهل العريس في منتهي الأدب معنا، بل والخجل أيضا من الفارق الاجتماعي والاقتصادي بين أسرتينا، حتى أننا كنا نجتهد أنا وبناتي وزوجي لإزالة حرجهم وارتباكهم حين ندعوهم للعشاء أو الغداء..

ثم حدث فجأة ما قلب حياتي رأسا على عقب، فلقد ألقت على

ابنتي قنبلة رهيبة حين اعترفت لي بأنها قد أخطأت مع خطيبها وفقدت عذريتها، ولا تدري ماذا تفعل، وتستنجد بي لكي أتصرف، ومهما كتبت لك عن حالتي حين عرفت ذلك فلن تستطيع تخيلها.. فقد أصبحت فجأة كالمجنونة، وتزاحمت الأفكار السوداء على رأسي فحرمتني من النوم نهائيا. صحيح أنني تأكدت من أنها ليست حامل... لكن ماذا لو أنه مات الآن فجأة والجميع يعرفون أنها لم تزف إليه بعد؟ وماذا لو تركها معلقة لا هي زوجة ولا هي مطلقة؟ **وماذا.. وماذا... أسئلة وخواطر مزعجة حتى أصبح كل أملي في الحياة هو أن تزف إلى زوجها وتقضي في بيته ولو ليلة واحدة، وبعدها فليفعل الله بها ما يشاء.**

وصارحت أباها بما حدث ففزع فزعا شديدا، لكنه حاول تهدئتي قدر استطاعته، واقترح على أن يتم الزفاف بعد عودة والد العريس من البلد الذي يعمل به بعد شهرين، لكني فقدت صوابي. شهران؟ ومن يضمن لى ألا يموت العريس خلال هذه الفترة ونتعرض للقيل والقال عند زواجها من آخر؟!

وانتقل الرعب من قلبي إلى قلب ابنتي، فتغير حالها من الفتاة التي كانت معتزة بنفسها وكثيرا ما كانت تتدلل على خطيبها وتصر على رأيها حتى يوافقها عليه فتشعر بأهميتها لديه وأنوثتها معه، تغيرت هذه الفتاة تماما فأصبحت نظراتها لخطيبها ذليلة وتحاول استرضاءه بشتى الوسائل، بل لقد أصبحت عبدة له، خوفا من أن يتركها أو يتخلى عنها.

وصارحت أنا خطيبها بما علمت وهاجمته بعنف، وتحملني هو بصبر، وأمرته بقسوة بأن يكون الزفاف بعد عشرة أيام لا غير، وانفجرت فيه حين حاول إقناعي بالانتظار شهرين حتى عودة أبيه، فانطلقت ابنتي فجأة في بكاء هستيري وتوسلت إليه في ذل كاد يقتلني أن يستجيب لرغبتي، ولولا حبه العظيم لها ما تحملني ولا تحملها، وفي النهاية لم يجد أمامه سوى الموافقة مع حيرته الشديدة، إذ كيف سيواجه أهله وكيف سيبرر لهم إتمام الزفاف بعد 10 أيام وقبل عودة أبيه، خاصة أنه قد تعهد لنا بكلمة شرف أن يكتم سره وسر ابنتي عن أهله.

وتركته غارقا في مشكلته وانشغلت بالإعداد للزفاف المتعجل.

وواجه خطيب ابنتي ثورة أمه وإخوته العارمة، وانهال عليه اللوم والتقريع: كيف لا تنتظر أباك؟.. ما هو وجه العجلة في إتمام الزفاف؟ كيف تتزوج بغير أبيك، إلخ.. وكان موقفه أمامهم صعبا للغاية، وراح يتعلل بشتى الحجج المرفوضة من جانبهم، وأخيرا تم الزفاف في الموعد الذي حددته، وبالغنا في مظاهر الفرح وإظهار فرحتنا به كأن على رأسنا بطحة نتحسسها، وأبنتي تجلس في الكوشة كالطير المذبوح كسيرة القلب، خجلانة مني ومن أبيها، وابتسامتها حزينة كأنما انطفأت شموع الفرحة في قلبها وهي ترى النفور والاستياء في وجوه أهل زوجها، وترى الفرحة العصبية المتشنجة من جانبنا.. وأخيرا انتهت أصعب ليلة في عمري كله، وانتقلت ابنتي إلى بيت زوجها، فإذا بأهله الذين كانوا يفركون أيديهم خجلاً إذا تحدثوا معنا يتجرأون علينا ويتهموننا باختطاف ابنهم، وبأننا ما صدقنا وجدناه كعريس حتى انقضضنا عليه... إلخ، ونغصوا على ابنتي حياتها، ولم يزرها أحد منهم للتهنئة بعد الزفاف، واضطر هو لأن يصطحبها إليهم مرات ومرات محاولا استرضاء أمه وإخوته، وفي كل مرة تسمع ابنتي من حماتها ما لا يخطر لها على بال. ولأن ابنتي تشعر بالذنب عما فعلت لأنها سلمته نفسها قبل الزفاف، كما أن زوجها قد واجه ثورة أهله وتزوجها حسب إرادتنا؛ فإنني لم أستطع أن أدافع عن ابنتي بكلمة واحدة، وتكررت معاناة ابنتي مع أهل زوجها وكلمات حماتها القارصة حتى أصابتها حالة اكتئاب أثرت على علاقتها الخاصة بزوجها، ولولا صبره وحبه لها لضاعت ابنتي. ثم مع الوقت وإحساسه بذبول زوجته فقد منعها من زيارة أهله.. وقلت زياراته هو لهم تدريجيا بعد أن شعر باليأس من الصفح عنه.. وللآن يا سيدي - وبعد مضي عدة شهور - فإن أمه وأباه لم يصفحا عنه، ولم يبح هو لهما أو لأحد بالسبب الذي اضطره لإتمام الزفاف على هذا النحو.

والآن بدأت ابنتي تستعيد ثقتها بنفسها بعد مجهود مضن مني ومن أبيها ومن زوجها الذي لن أنسى له (معروفه) معنا ما حييت، وأصبح الآن أغلى من أبنائي

لموقفه الرجولي منا وحفاظه على سرنا وكرامتنا. ولذلك فإنني أنصح كل أم أن تحاول - ولو من وراء قلبها- أن تسامح أبناءها وألا تضغط عليهم بقسوة، لأنها لا تعرف ظروفهم ولا ماذا يضطرهم إلى ما يضطرون إليه، وأنا أعتقد أن ابن كاتبة رسالة» العمر الضائع» له أيضا سره الخاص الذي دفعه لتعجل الزفاف على هذا النحو، وليس من الضروري أن يكون هو نفس سر ابنتي، لكن هناك بالتأكيد سبباً قوياً لما فعل. لذلك أناشد والدته أن تسامحه وتصفح عنه، وأن ترحم زوجته الصغيرة وتسعدها برضاها عنهما.

كما أناشد كل فتاة أن ترحم أهلها، وألا تضعهم في مواقف مخزية وشديدة الإحراج يحارون معها: كيف يتصرفون وكيف يحافظون على سمعتهم وصورتهم أمام الآخرين.. كما أرجو أن تفهم الفتاة المخطوبة والمعقود قرانها أنها ليست زوجة بعد، ولن تكون كذلك إلا حين تنتقل إلى بيتها السعيد الجديد بإذن الله، ولتكن كل خطوة في توقيتها الصحيح حتى تشعر هي قبل غيرها بالرضا والسعادة، وحتى تتجنب العناء والمشاكل العائلية والأزمات النفسية التي تترتب على غير ذلك.. وشكرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

كل خروج على مألوف الحياة وما تراضى عليه البشر من أعراف وتقاليد ونظم مستقرة، هو في النهاية مغامرة محفوفة بالمخاطر، ولابد أن تكون تبعاتها ثقيلة على من يقدم عليها. والكارثة هي أننا حين نهم بالوقوع في هذه المخاطر فإننا ننسى في لحظة العمى والجنون كل ما سوف نواجهه بعد قليل من أهوال وردود أفعال رافضة وساخطة، ولا تتملكنا في تلك اللحظة سوى الرغبة في الانسياق وراء أهوائنا دون تقدير للعواقب، ثم لا نلبث أن نفيق من سكرتنا ونتعجب من أمرنا ونتساءل نادمين: ماذا فعلنا بأنفسنا وبأعزاءنا وقد كان في مقدورنا أن نجنبهم ونتجنب معهم كل ذلك لو كنا فقط قد تحلينا بضبط النفس وقدّرنا لأقدامنا قبل الخطر موضعها.

ومهما حاولنا أن نبرر لأنفسنا ما فعلنا أو نلتمس لها العذر فيه، فإننا لا نستطيع أن ننفي عنها تهمة الأنانية والذاتية والانشغال بأنفسنا ورغباتنا وحدنا في تلك المخاطرة، دون تقدير لما سوف يترتب عليها من عناء للأهل والأعزاء، لهذا فإن الإنسان مطالب بأن يحاول دائما تحقيق المعادلة الضرورية بين حقوق الآخرين عليه وواجباته تجاههم، وأولها ألا يضعهم بأفعاله موضع الحرج الاجتماعي والعائلي، ناهيك عما سوف ندفعه نحن من ثمن غال من أعصابنا ودمنا، ومن رفض الآخرين لنا وإنكارهم علينا ما فعلنا.

إن رسالتك مفيدة وهامة يا سيدتي، ولقد آثرت نشرها كاملة لكي يستفيد بتجربتك وتجربة ابنتك فيها من قد تراودهم أنفسهم للإقدام على مخاطرة الخروج على المألوف.. لعلهم يلمسون في صدقك في تصوير أحاسيسك حين علمت بالقنبلة

والتغيرات التي طرأت على شخصية ابنتك قبيل الزفاف وبعده ما هو أبلغ من عشرات من النصائح والعظات التي تحض على عدم الخروج على ضوابط الحياة أو قوانينها. وهذا أمر عادل وضروري، فنحن في الحقيقة لا نعيش وحدنا في صحراء قاحلة نستطيع أن نفعل فيها ما نشاء حين نشاء، وإنما نعيش وسط بشر لابد أن نرعى حقوقهم كما يرعون هم حقوقنا ولابد أن نلتزم معهم بكل ما يجنبهم الحرج والعناء..

والمفارقة التي لا أريد أن تفوتني الإشارة إليها هو أن ما فعلته ابنتك مع خطيبها المعقود قرانها عليه لا يدخل في النهاية في دائرة الحرام، لكنه رغم ذلك يدخل في دائرة الخطأ الكبير، لأنه خروج على الأعراف المستقرة وعلى ضوابط الحياة وحقوق الأهل والمجتمع ولهذا كان فزعك واضطرابك، وكان انكسار ابنتك، وكان الموقف العصيب الذي واجهه زوج ابنتك في النهاية مع أهله وما زال يواجهه وينعكس على زوجته حتى الآن، فلعل الجميع يتسامحون فيما لم يعد يغير منه شيء حجب الرضا ولا صكوك الحرمان، ولعل كل فتاة تعي مناشدتك الحكيمة لها وتعمل بها.. وشكراً لك

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اللقب الأبغض

«إن من يعتز بنفسه وبأسرته
وذويه وأبنائه حقا وصدقا، هو من
يربّأ بنفسه عن الخطأ مهما كانت
شدة احتياجه إليه»

أنا سيدة في الخامسة والأربعين من عمري، تزوجت منذ خمسة عشر عاما، ومنحني الله ولدين وبنتين. ولي إخوة وأخوات، وقد نشأنا جميعا بين أب متفهم وأم حازمة تشربنا منهما القيم الدينية والأخلاقية، وصمدنا لاختبارات الحياة وجنينا ثمار كفاحنا، فتخرجنا وعملنا وترقينا جميعا في مناصبنا. وتزوجت وأنا في الثلاثين من عمري من زوجي الذي أحببته، ومع ذلك فأنا الآن أعيش في بيت أسرتي مع أبي وأمي وأولادي الأربعة، لأن من تقاليد أسرتي ألا تعيش الابنة مع أولادها وحدها في مسكنها إذا كان الزوج غائبا..

وزوجي غائب منذ 5 سنوات يا سيدي، لكنه ليس مسافرا للعمل في الخارج كما قد تتصور، ولا هاجرا لي، وإنما هو للأسف.. سجين!.. نعم. زوجي، أبو أبنائي الذي أحبه سجين؛ فقد اتهم في قضية أعتبرها مخلة بالشرف لخيانته للأمانة وتزويره وإعطائه شيكات بدون رصيد، وكلها تصرفات تتعلق بالمال، وهي السمة التي طفت الآن على السطح فأصبح كل إنسان يريد أن يعمل القليل ويجني الكثير.. إنني لست أحلم بالمدينة الفاضلة، لكني أتألم لانهيار الحلم الجميل الذي كنت أعيشه وأريد لأبنائي أن ينشأوا فيه. وقد قرأت لك

ردًّا تقول فيه: إنه ليس من العدل أن يتحمل الإنسان تبعات أخطاء الآخرين.. وهذا هو العدل حقا يا سيدي. لكن كيف أنجو من تحمل تبعات أخطاء الآخرين وهؤلاء الآخرون هم زوجي وأبو أولادي الذين أخفيت عنهم خبر أبيهم؟ إذ ماذا أقول لهم عن الأب الذي ينبغي أن يكون مثلهم الأعلى، في الحياة والقيم والمبادئ؟..

إنني لا أستطيع أن أفجعهم في مثلهم الأعلى، وأفضل أن أدعهم في حلمهم يحلمون باليوم الذي سيعود فيه (بابا) من الخارج معه شهادة الدكتوراه التي زعمت لهم أنه يحضر لها هناك، بعد أن حصل على الماجستير هنا.

ومع ذلك فإنني أكاد أجن كلما زرت زوجي في سجنه كل أسبوع حين ألمس اللامبالاة التي يواجه بها الموقف.. وأكاد لا أصدق أنه هو نفس الإنسان الذي أحببته وعاشرته وحلمت معه بأن نعبر معا بأبنائنا بحر الحياة إلى شاطئ الأمان.

إنني أتساءل: ما المبرر الذي يجعل أي إنسان يخون الأمانة ويخون ثقة الآخرين فيه؟

لقد كان والدي في منصب يستطيع معه - لو أراد - أن يكون أحد نجوم مجتمع الثراء، لكنه والحمد لله لم يمد يده إلى قرش واحد من المال الحرام.. وكان يستطيع أن يجهزنا للزواج أحسن جهاز لو فعل، لكنه أراد لكل منا - ولذا كان أو

بنتا - أن يكون مسؤولا عن نفسه فساعدنا في حدود إمكانياته ومعاشه بما يستطيع، واعتمدنا نحن في الباقي على أنفسنا، وأصبح لكل منا بيته وأسرته وأبناؤه، لكن ها أنا أعود إليه محملة بأربعة أطفال صغار في حكم الأيتام.. فلماذا يا ربي هذا العذاب وأنا لم أطلب شيئا من الدنيا سوى الستر.. ولم أرد لأبنائي سوى الحياة الشريفة العادية؟

إنني أسمع عن زوجات قد يدفعن أزواجهن أحيانا إلى المال الحرام بمطالبهن التي لا تنتهي، وربي عليم بكل شيء.. يعلم أنني لم أطلب من زوجي شيئا يفوق أو يتجاوز حدود إمكانياتنا المعروفة، لكنه هو الذي كانت له تطلعات غريبة لا تتفق مع دخلنا، وقد لاحظت عليه زيادة في دخله كان يبررها دائما بصرف مكافآت له، وكان وقتي كله مشغولا بالعمل والبيت ورعاية الأولاد ورعايته هو، وكنت أحذره دائما من المال الحرام وما يجره على البيوت الآمنة من خراب، فأفقت من حلمي على الواقع المر، وتوالت الكوارث علينا وكانت صدمتي كبيرة.. وضاعف من آلامي ما أتكبده في كل زيارة من عناء نفسي مؤلم، ومن إعداد مؤن وطلبات غريبة له ولزملائه »زملاء السجن« دون أية مراعاة لمشاعري ولا لأننا نفتقده كأب ورب أسرة، وكل همه هو الطلبات المختلفة من الطعام والملابس وأنواع البقول وأدوات التنظيف وخلافه، ولا يعرف أحد عمق المعاناة النفسية التي أعانيها حين أضطر - وأنا الأم والزوجة الجامعية والموظفة في منصب محترم - لأن أتعامل عند زيارتي له مع نوع من البشر لم أكن أتخيل أن أتعامل معهم ذات يوم، كزوجات وأقارب المسجونين المحترفين الذين يذهبون إلى السجن وكأنهم في نزهة عائلية، وكالجنود الذين تعودوا على أن يتعاملوا مع أقارب المسجونين كمواطنين من الدرجة العاشرة، ولا تفرقة عندهم بين زوجة تاجر مخدرات، وزوجة (بك) كان مفروضا ألا يعرض زوجته ذات يوم لمثل هذه المهانة.

والعجيب أنه لا يشعر بالندم على ما فعل.. وقد قابل خبر فصله من عمله بعد صدور الحكم عليه بمنتهى البرود.. ولست أعرف هل هو برود فعلا أم أن بداخله بركانا يداريه ويريد أن يطمئنني!

لقد قرأت في أحد الكتب أن كثيرين من المجرمين المسجونين في أحد السجون الأمريكية التي زارها المؤلف لم يكونوا يشعرون بالندم على ما فعلوا، بل وكانوا يشعرون بأن الجميع قد ظلموهم، وحين قرأت ذلك منذ عشر سنوات لم أفهمه ولم أحس به.. لكني فهمته الآن وأحسست به.

والكارثة أن بعض أقارب زوجي اتهموني - سامحهم الله بأنني كنت أعرف بما يفعل وأتستر عليه.. والله يعلم أنني لم أكن أعرف شيئا مما فعل، ولو عرفت به في حينه لكان لي معه شأن آخر،، والحمد لله فإن أحدا سوى هؤلاء الأقارب لم يصدق زعمهم عني، وما زلت موضع احترام كل من أعرفهم، ولم ينقص هذا الاحترام بعد ما حدث، بل زادتني المحنة إصرارا على أن ينشأ أبنائي في جو نظيف أوفر لهم فيه كل ما يحتاجون إليه إلا الأب الذي فقدوه، كما زادتني المحنة إيمانا بأن الإنسان الشريف وحده هو الذي يستحق الحياة، كما وأن الإنسان لابد أن يؤمن دائما بأن لكل إنسان ظروفه ورزقه، ولا ينبغي أن يتطلع لما ليس في قدرته، فأنا

قد دفعت مع أبنائي هذا الثمن الغالي من سعادتنا وأماننا، ولم ألاحظ أي فرق يذكر في مستوى معيشتنا قبل أن يمد زوجي يده إلى المال الحرام، وبعد أن حدثت الكارثة، اللهم إلا في بعض الأشياء التافهة التي يستطيع أي إنسان الاستغناء عنها بسهولة.. فهل تستحق مثل هذه الأشياء ما ندفعه أنا وأبنائي من ثمن باهظ لها الآن؟.. وكيف هان على زوجي أن يعرضنا جميعا لهذه المحنة.. وكيف لم يرع مستقبل ابنتيه ولا أقول ولديه أيضا؟..

لقد فكرت جديا في السفر للخارج بعد أن أحسست بمدى الظلم الذي تعرضنا له كأسرة.. لكني راجعت نفسي وتساءلت: ولماذا أغترب عن بلدي وبها ملايين البشر الذين يتحملون ظروف حياتهم بصبر ولا يمدون أيديهم إلى الحرام؟.. لقد حدث ما حدث نتيجة الخطأ إنسان أخطأ واستمر في الخطأ بلا وازع من ضمير.. فلماذا أسافر وأغترب؟ هل أهرب من مواجهة الناس؟.. ولماذا أهرب وقلوب أحبائي - كانت وما زالت - حولي في محنتي وأعانتني على تحملها؟..

إنني أعيش منذ 5 سنوات في بيت والدي وأنتظر أن أرجع إلى بيتي بعد خروج زوجي من سجنه، وسأرجع إليه.. ولكن ليس كزوجين، وأنا أصر على ذلك إصرارا نهائيا ومهما كانت تبريراته، ولكن كأب وأم لأبنائنا فقط، فلقد هاجمتني الأمراض كالسكر والقلب والضغط، وكلها أمراض عصبية.. وكثيرا ما أبكي حتى تجف دموعي، وأتعزى عما أعانيه بما قرأت في بريدك من هموم غيري ومآسيهم، ولقد قرأت فيه أكثر من رسالة لسيدات مطلقات يشكين من أنهن يحملن اللقب البغيض، وهو لقب المطلقة بما له من آثار نفسية ومشاكل.. ولهؤلاء جميعا أقول: إن هناك من هن أكثر تعاسة منكن.. فلقد كنت أتمنى أن أحمل لقب المطلقة أو لقب الأرملة وألا أحمل أبدا هذا اللقب الأبغض وهو لقب زوجة السجين..

لقد أثقلت عليك برسالتي، لكني أحسست الآن بالراحة لأني كنت في حاجة إلى أن أتحدث إلى إنسان يتفهم موقفي ويقدره، فالجميع هنا يتهمونني بالجنون لإصراري على الذهاب لزيارته أسبوعيا.. وأنا أتساءل: أليس هذا هو أقل شيء أستطيع أن أقدمه لوالد أبنائي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا لوم عليك يا سيدتي في وفائك لزوجك وحرصك على زيارته أسبوعيا في سجنه مع ما تتكبدين في ذلك من معاناة نفسية ومادية مريرة.. فالأصل هو ألا يعاقب الجاني على جريمته مرتين، ولقد أخطأ زوجك في حق المجتمع فعاقبه على جريمته بالسجن، وهو عقاب قاس وكاف في حد ذاته، فإذا كنا لا نلوم من تتخلى عن زوجها إذا أخطأ في حق مجتمعه وأسرته ودخل السجن، ونرى في حصولها على الطلاق منه للضرر حقا لها تقدره وفقا لظروفها، ولها أن تستخدمه أو تتنازل عنه.. فكيف نستطيع أن نلوم زوجة على وفائها لزوجها ووالد أطفالها الأربعة، بغض النظر عن خطيئته في حق مجتمعه وأسرته؟

إن كل إنسان يتصرف بهدي من أخلاقياته ومثالياته هو وليس بأخلاقيات الآخرين وأفكارهم كما يقول لنا علماء السلوك، فإذا كنت قد أقمت على وفائك لزوجك ووالد أطفالك - بل وعلى حبك له أيضا كما فهمت من رسالتك، ورغم ما فعل بك وبأسرته. فلا لوم ولا عتاب.. فكل إنسان ينفق مما عنده يا سيدتي كما يقول لنا السيد المسيح عليه السلام، ولقد رأيت أنت أنه ليس من الرحمة أن تنبذيه أو تتخلى عنه في محنته القاسية، حتى ولو لم يكن جديرا بهذا العطاء؛ لأن بينك وبينه صلة يصعب فصمها هم الأطفال الأربعة الذين ينتظرون عودة الأب الغائب من غيبته.. فمن ذا يستطيع لومك على ذلك؟

أما حديثك عن لا مبالاته وعدم إحساسه بالندم على ما فعل، فلست أستطيع الجزم بحقيقته.. لأن نفسية السجين تختلف كثيرا عن نفسية من يتنسم نسيم الحرية، وهو غالبا ـ خاصة إذا كان شخصية سوية - يشعر بالندم في أعماق سريرته على ما فعل، ويلعن اللحظة التي استسلم فيها لضعفه وانتهى به أمره إلى السجن والسجن دائما تجربة شديدة القسوة والمرارة إلى حد أنه لا يستطيع أحد أن يحكم عليها سوى من كابدها بنفسه، لكنه من ناحية أخرى يرى أنه يدفع ثمن جريمته باهظا.. فماذا ينتظر منه الآخرون أكثر من ذلك؟!

ولماذا يتوقعون منه في كل لقاء معه أن يذرف الدمع ويبدي الندم بالكلمات والألفاظ وقد بكي في بداية المحنة طويلا حتى جفت مآقيه، ولن يغير بكاؤه الآن، ولا إظهار ندمه، من واقعه الحزين شيئا.. فضلا أن المجتمع السجن نفسه تقاليده التي تستنكر الضعف والتخاذل، وإنكار الجريمة وادعاء البراءة وإظهار الندم باعتباره ضعفا. ولهذا كله فإني أرجح أن ما تتصورينه فيه من لا مبالاة وعدم إحساس بالندم، إنما هو غالبا تبلد أو جمود في المشاعر بتأثير الإقامة الطويلة في السجن واعتياد الأمر الواقع، وليس دليلا على عدم الندم. وحتى انحصار مطالبه في الأشياء المادية لا يعني ذلك أيضا، لأنها من ضرورات الحياة في السجن وليست ترفا ولا تعبيرا عن اللامبالاة كما تتصورين.

والأشخاص الأسوياء من غير محترفي الإجرام ولا من أصحاب الشخصية السيكوباتية المنحرفة التي تختلط لديها الحدود بين الخطأ والصواب بشكل مرضي ولا يردعها رادع عما ترغب أو ترى فيه صالحها.. الأشخاص الأسوياء هؤلاء لا يخرجون من السجن في كل مكان بالعالم إلا بدرس واحد، هو أنه ينبغي عليهم ألا يرجعوا إليه مرة أخرى مهما كانت الظروف والمغريات!

ولست أتصور أن زوجك شخصية سيكوباتية، وإنما أتصور أنه واحد من أصحاب الضعف البشري والحس الضعيف بحرمة المال العام، ومال الغير، الذين يمكن أن تجرفهم تطلعاتهم الحقيرة إلى هاوية الخطيئة.. وأمثال هؤلاء تكفي هراوة السجن الثقيلة غالبا لتطهير رؤوسهم من هذه التطلعات والأوهام.. ويكفي ما تعانيه أسرهم وأبناؤهم وهم شخصيا خلال المحنة لإقناعهم بعد فوات الأوان بأن الإنسان الرحيم بأسرته حقا هو الإنسان الذي يشفق عليها من أن تطعم من حرام مهما كانت مغرياته.. وأنه لا شيء في الحياة يعدل إحساس الأمان ورضا الضمير والسلام الذي يشعر به الإنسان الشريف مهما كانت ظروفه قاسية.. فكل شيء

فيما خلا رضاء ضمير الإنسان واستشعاره الذاتي للكرامة الإنسانية التي لا يستطيع أن يحس بها وهو يقرب الحرام.. باطل وتافه.. وأتفه من التفاهة..

وخير دليل على ذلك هو ما تقولينه أنت يا سيدتي من أنك لم تستشعري فرقا محسوسا بين حياتك قبل أن يقرب زوجك المال الحرام وبعد أن ارتوى منه، سوى في أشياء شديدة التفاهة ويمكن الاستغناء عنها بمنتهى السهولة، وحتى لو لم تكن كذلك فهي لا تستحق أيضا أن يلوث الإنسان الشريف يده ونفسه وروحه بها. ومن أجمل ما

قرأت من تعبيرات أدبية، تعبير يتحدث فيه الأديب الروسي العظيم تشيكوف عن شخص شريف فيقول عنه: (لقد كان أكثر اعتزازا بنفسه من أن يكون مختلسا أو لصا رغم شدة فقره)!

فهل تأمل البعض هذا التعبير الفريد؟.. إنه يقول لنا بإيجاز معجز: إن من يعتز بنفسه حق وصدقا وبأسرته وأبنائه وإخوته وذويه، وهو من يربأ بنفسه عن الخطأ مهما كانت شدة احتياجه إليه، وليس العكس.. ولست أتحدث هنا عن عقاب السماء ولا عن سوء المصير، فهذه كلها أمور معروفة، و(السكوت عن المعلوم بلاغة) كما تقول الحكمة القديمة.. لكني أتحدث فقط عن تقدير الإنسان لنفسه ورؤيته لمدى جدارتها بأن تكون بين الشرفاء أو تكون بين غيرهم.

واستبشاعك أنت يا سيدتي لما فعل زوجك هو أيضا جزء من ضوابط الحياة وقوانينها التي تكفل لها الاستقرار والاستمرار، وعالم الاجتماع الشهير إميل دوركايم يقول لنا: إن أي موقف إدانة يتخذه المجتمع ضد من ينحرف من أفراده، إنما يهدف إلى منح الطمأنينة لباقي أفراد هذا المجتمع الذين يهمهم المحافظة على استقراره بمعنى أنك ستفزعين يا سيدتي إذا علمت مثلا أن أحدا قد قتل أمه.. لكن المؤكد أنك كنت ستفزعين أكثر إذا وجدت المجتمع المحيط بهذه الجريمة لا يدينها ولا يستنكرها ولا ينبذ مرتكبها، فلعل زوجك يكون قد استوعب درس تجربته هذه.. واستوعب مغزى استنكار حتى أقرب الناس منه لها.. ولعلك لا تلومين أحدا على حرمان أطفالك من أبيهم، وعلى ما تعانين من مهانة عند التعامل مع جنود السجن وزوجات المجرمين، سوى من لم يكن أكثر اعتزازا بنفسه وبكم من أن يجنبكم هذا الهوان.. ولا لوم عليك في النهاية فيما تختارين لحياتك معه في المستقبل إذا لم يتأكد لديك صدق ندمه وصدق نيته على أن يبدأ معك ومع أبنائه ومع الحياة صفحة جديدة بيضاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضرب السياط

«إن شئت فاظلم، وإن شئت
فاعدل.. فما تظلم في النهاية سوى
نفسك، وما تستعدي ربك في
الحقيقة سوى على نفسك»

أكتب إليك للمرة الثانية بعد أن كتبت لك منذ شهرين بقصتي ولم أجد ردا عليها.. فأنا سيدة في الأربعين من عمري، أعمل موظفة بهيئة حكومية منذ 17 عاما، وأحب عملي كثيرا، وقد تزوجت منذ أحد عشر عاما من رجل متوسط العمر يملك محلا تجاريا بجوار مكتب الهيئة التي أعمل بها، وكان حين تزوجته أبا لثلاثة أولاد، ودائم الشكوى من زوجته التي طلقها ثلاث مرات، فارتبط بي وجمعني بيت واحد معه ومع أبنائه، وكنت قد أحببت هذا الرجل حبا ملك على نفسي، فأديت واجبي كزوجة وأم تجاهه وتجاه أبنائه الذين أحببتهم ورعيتهم بإخلاص. وقد شاءت إرادة الله ألا أرزق بأطفال، وفشلت كل محاولاتي للإنجاب، فاتخذت من أولاد زوجي أولادا لي، وكانت أسعد أوقاتي دائما هي تلك التي أخرج فيها أشتري لهم ملابسهم وألبي مطالبهم، وقد توليتهم حتى كبروا ووصلوا إلى المرحلة الإعدادية، وطول هذه السنوات كنت أحل أية مشكلة تحدث بعيدا عن زوجي حتى لا أفسد عليه سعادته، وكان هو يردد دائما أن الله سبحانه وتعالى قد عوضه خيرا عن زيجته الأولى الفاشلة بزواجه مني، وأنه يحبني ولا يستطيع أن يتحمل فراقي. وكنت أسعد كثيرا بهذه الكلمات الطيبة وأستمد منها قوة جديدة للاستمرار في العطاء، خاصة وأني - والحمد لله. سيدة متدينة ومحجبة، ثم حدث أن توفيت والدتي رحمها الله، وكنت أعتبرها كل شيء لي في الحياة لأني وحيدة بلا إخوة ولا أخوات.. فحزنت لوفاتها حزنا شديدا، وشعرت أن الدنيا قد خلت من حولي بعد رحيلها.. وفعلا يا سيدي، فقد كان رحيلها عن الحياة نذيرا بانتهاء أيام السعادة والأمان في حياتي.. فعقب وفاتها بأيام أصيب ابن زوجي في حادث سيارة ونقل إلى المستشفى في حالة سيئة، فلازمته عشرة أيام، وجاءت والدته من البلدة التي تعيش فيها لتطمئن عليه، فكانت تذهب وتجيء وكأنها إنسانة غريبة عنه، ولا تطيل وجودها إلى جوار ابنها، في حين أقوم أنا بكل ما يحتاج إليه من خدمة ورعاية في المستشفى لأني أحب هذا الولد حبا كبيرا كما أحب إخوته، إلى أن جاءت ذكرى الأربعين لوفاة أمي، فاستأذنت زوجي في الذهاب إلى شقتها لاستقبال أقاربي، فأذن لي بذلك، وذهب هو بدلا مني إلى المستشفى وأمضى النهار كله إلى جوار ابنه.

وفي نهاية اليوم رجعت إلى بيتي، فإذا بزوجي يرفض السماح لي بالرجوع إليه ويطالبني بالعودة إلى حيث أتيت. ومنذ ذلك الحين وأنا أقيم في شقة والدتي التي ينازعني عليها مالك البيت ويريد طردي منها بدعوى أنني متزوجة، وزوجي يرفض عودتي إلى بيته إلا إذا قدمت استقالتي من عملي وتفرغت له نهائيا. ولقد توسلت إليه واستحلفته بربه أن يتركني أواصل العمل لمدة ثلاث سنوات فقط لكي

أتم 20 عاما في الخدمة وأستحق نصيبي في المعاش لأني أخاف من تقلبات الأيام وليس لي مورد سوي عملي، فرفض ذلك بإصرار، ووسطت لديه الأهل والأصدقاء بلا فائدة، وأخيرا سلمت مضطرة برغبته، وذهبت إليه وأبلغته بقبولي الاستقالة والتضحية بعملي من أجله، مع أن عملي لم يكن يؤثر على حياتي أو واجباتي تجاهه، فإذا بزوجي يفاجئني مفاجأة أشد وأقسى، وهي أنني إذا رجعت للحياة معه فلن أعود للشقة التي عشت فيها ١١ عاما وارتبطت بها..!

ودهشت دهشة شديدة لذلك، وحاولت أن أفهم منه تفسيرا مقبولا فلم أستطع.. وأخيرا - وبعد عناء شديد - صارحني بأنه يريد أن يتزوج من أخرى ويجعل من هذه الشقة التي وضعت على كل ركن فيها بصماتي عش الزوجية الجديدة!

ولا تستطيع أن تتخيل يا سيدي مدى شقائي حين علمت منه ذلك ولا ما شعرت به من غيظ وكمد وحقد على كل شيء.. لقد اسودت الحياة أمام عيني وفقدت الأمل في كل شيء ولازمني الاكتئاب بعدها واليأس حتى كرهت عملي الذي كنت أحبه كثيرا، وأهملت أداء واجباتي فيه لأني شعرت بأنه كان السبب فيما أعاني منه! ولقد رفضت أن تشاركني في زوجي الذي أحببته كل هذا الحب امرأة أخرى أيا كان وضعها، وطلبت من زوجي الطلاق، فطالبني بالتنازل عن حقوقي المادية، وما زال سادرا في غيه ويرفض النصيحة، ويرد على من يقولون له أن زوجتك طيبة ومتدينة وترعي أبناءك، ولديك من الأبناء الذكر والأنثى، فما حاجتك إلى زواج جديد.. فيؤكد أنه معترف بذلك بل ما زال يحبني.. لكنه يريد أن يتزوج وخلاص؟

لقد مضت خمسة شهور طويلة وزوجي يرفض أن يطلقني إلا إذا تنازلت له عن حقوقي، ويرفض عودتنا إلى حياتنا الطبيعية والعدول عن فكرة الزواج الجديد. ويقول إنه سوف يتزوج عرفيا حتى لا أحصل منه على الطلاق عن طريق المحكمة.. فهل هذا عدل يا سيدي؟.. وهل هذه مكافأتي على الحب والإخلاص وتربية أبناء زوجي الصغار وحبهم ورعايتهم؟.

إنني أرجوك أن تكتب لي كلمة، وأن تنصحه بألا يظلمني لأن الظلم ظلمات يوم القيامة.. وأن تقول له: إنني لا أريد منه شيئا سوى أن يطلقني ويعطيني حقوقي، ولي الله بعد ذلك يتولاني ويرعاني، وإني واثقة من أنه لن يتخلى عني لأني لم أظلم زوجي يوما ما، وكنت أرعى ربي في كل تصرفاتي معه ومع أبنائه طوال سنوات الزواج. لكن السؤال الذي يحيرني هو: هل هذا مصير الزوجة المحبة المخلصة لزوجها وبيتها؟.. وهل ذنبي أنني لم أرزق بأطفال؟..

لقد أصبحت أشك في جميع الناس، وفقدت الثقة في كل من حولي، ولا أريد أن أقابل أحدا أو أتحدث مع أحد، بعد ما فعله بي هذا الزوج الغادر الذي كنت أعتبره كل دنياي، وأعتبره الأب والأخ والزوج والحبيب وكل أهلي وأقاربي.. وإنني أناشدك أن تكتب له كلمة بألا يفعل معي سوى ما يرضي عنه ربه، وألا يظلمني فيه.

ولك مني كل شكر وتقدير.. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

تقلب المشاعر والقلوب أمر وارد ومن طبيعة البشر، لكن التجمّل والتعفف عن خذلان من أخلصوا الود للإنسان، واسترجاع مواقفهم معه وعطاءهم المخلص له والإشفاق عليهم مما قد يصيبهم من أذى وإيلام إذا هو أنساق لرغباته وحدها، يرجع بالأصلاء من بني البشر عن الاستسلام لخطرات النفس الأمارة بالسوء، ويردهم عن غيهم.. وقد يحيى في قلوبهم بعد حين المشاعر القديمة تجاه شركائهم، فترجع صادقة إذا حثها على التنبه من مرقدها ورعاها وأذكى نارها الفاترة إلى أن تسترد قوتها وعافيتها من جديد، وهذا هو ما ينبغي أن يفعله الإنسان في مثل هذا الموقف، إذ لو استسلم كل إنسان لخطرات النفس وتقلبات المشاعر الطارئة لما دامت حياة، ولما تشارك اثنان في رحلة العمر حتى نهايتها. والواضح يا سيدتي أن زوجك كانت له من قبل تحفظات قديمة على عملك وعلى تأثيره على حياتك معه ومع أبنائه، وأن مطالبته لك بالاستقالة منه لم تكن مفاجأة كاملة لك، وإنما كانت استطرادا لموقف سابق تمت مناقشته مرارا من قبل.

ورغم أنه كان يستطيع أن يتجمل بالصبر ثلاث سنوات أخرى حتى لا يحرمك من حقك المشروع في المعاش وفي تأمين مستقبلك، إلا أنه أراد عامدا هذه المرة أن يضعك أمام الخيار الصعب بين تطلعك للأمان المادي وبين رغبتك في الاستقرار والسعادة معه. وظني أنه لم يكن جادا في هذا الاختيار، لأن من قبل بعملك أحد عشر عاما كان يستطيع أن يصبر عليه بغير عناء ثلاث سنوات أخرى، وإنما هو في تصوري قد أراد أن يدفعك إلى التمسك بعملك وطلب الطلاق مقابل التنازل عن حقوقك المادية لديه، وأن يصور الخلاف بينكما وكأنه خلاف حول استمرارك في عملك والتضحية بزوجك، أو التضحية بعملك وتفضيل حياتك الزوجية، وحين فاجأته بالاستسلام لإرادته والتضحية بعملك قبل ثلاث سنوات فقط من أحقيتك في المعاش الكريم، اضطربت برامجه.. فاضطر لمصارحتك بنيته المبيتة للزواج مرة أخرى، وأراد إرغامك على القبول به كأمر واقع لا بديل عنه، ورفض الاستماع لنصح الناصحين بأنه لا يحتاج إلى زواج جديد، وقد منّ الله عليه بالبنين وبالزوجة المحبة المخلصة الراعية لأبنائه، وهو بالفعل زواج لا ضرورة له ولا مبرر سوى هوى النفس والاستسلام لرغائبها بغير توقف أمام ما يترتب على ذلك من إيلام للآخرين.

وحتى لو سلمنا له بحقه في أن يفعل بحياته ما يشاء وألا يتوقف أمام شقاء الآخرين برغباته، فلقد أعفانا الله سبحانه وتعالى من الحيرة، وأوضح لنا الطريق لكي نخفف من وقع إيذائنا للآخرين بتحول مشاعرنا عنهم، فخيرنا بين إمساك بمعروف وبين تسريح بإحسان.. والإحسان في اللغة أكبر وأعم وأشمل من المعروف..

ومعناه أن نؤدي إلى من آذيناهم - إن عجزنا عن الترفع عن الاستسلام لأهوائنا وحدها - كل حقوقهم بلا مماطلة ولا تسويف، وبلا منازعة لهم في شيء منها، بل ورأى لنا بحكمته أن نكون أكثر من كرماء معهم، عسى أن يخفف ذلك عنهم بعض ما يشعرون به من غصة وخذلان. وهذا هو نموذج الخلاف النبيل الذي ينبغي أن يلتزم به المرء مع من شاركهم حياتهم وتمازج عرقه بعرقهم.. أما أن نبخسهم حقهم وننازعهم فيه، ونطالبهم فوق كل ما أصابهم من إيلام الجحود والنكران بالتنازل عنه، فهو ما لا يليق بالشرفاء من البشر، ولا يرضى عنه من حرم الظلم على نفسه - سبحانه - وجعله بين عباده محرما.. فقولي لزوجك كل ذلك يا سيدتي وذكريه بأننا لا نفلت أبدا بظلم نرتكبه ضد أحد من عقاب الدنيا قبل عقاب السماء، وبأن الإنسان إنما يتوسل إلى ربه أن يجنبه ظلم الحياة والآخرين له بالعدل مع الجميع، وبالأمانة مع الحياة.. فإذا كان راغبا في غير ذلك فهو وشأنه، فما يختلف حاله في ذلك في كثير أو قليل عن حال ذلك الرجل الذي كان يضرب آخر بالسوط عقابا له على شيء ارتكبه، فرآه أحد الصالحين، فلم يستعطفه ولم يناشده الرحمة بمن يؤذيه، وإنما قال له في ثبات: إن شئت فأكثر.. وإن شئت فقلل... فما تضرب في النهاية إلا نفسك!

وكذلك أقول لزوجك: إن شئت فاظلم، وإن شئت فاعدل.. فما تظلم في النهاية سوى نفسك، وما تستعدي ربك في الحقيقة سوى عليك.. فضع نفسك حيث تراها جديرة بأن تناله من عدل الحياة معها.. أو ظلمها لها.. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله)

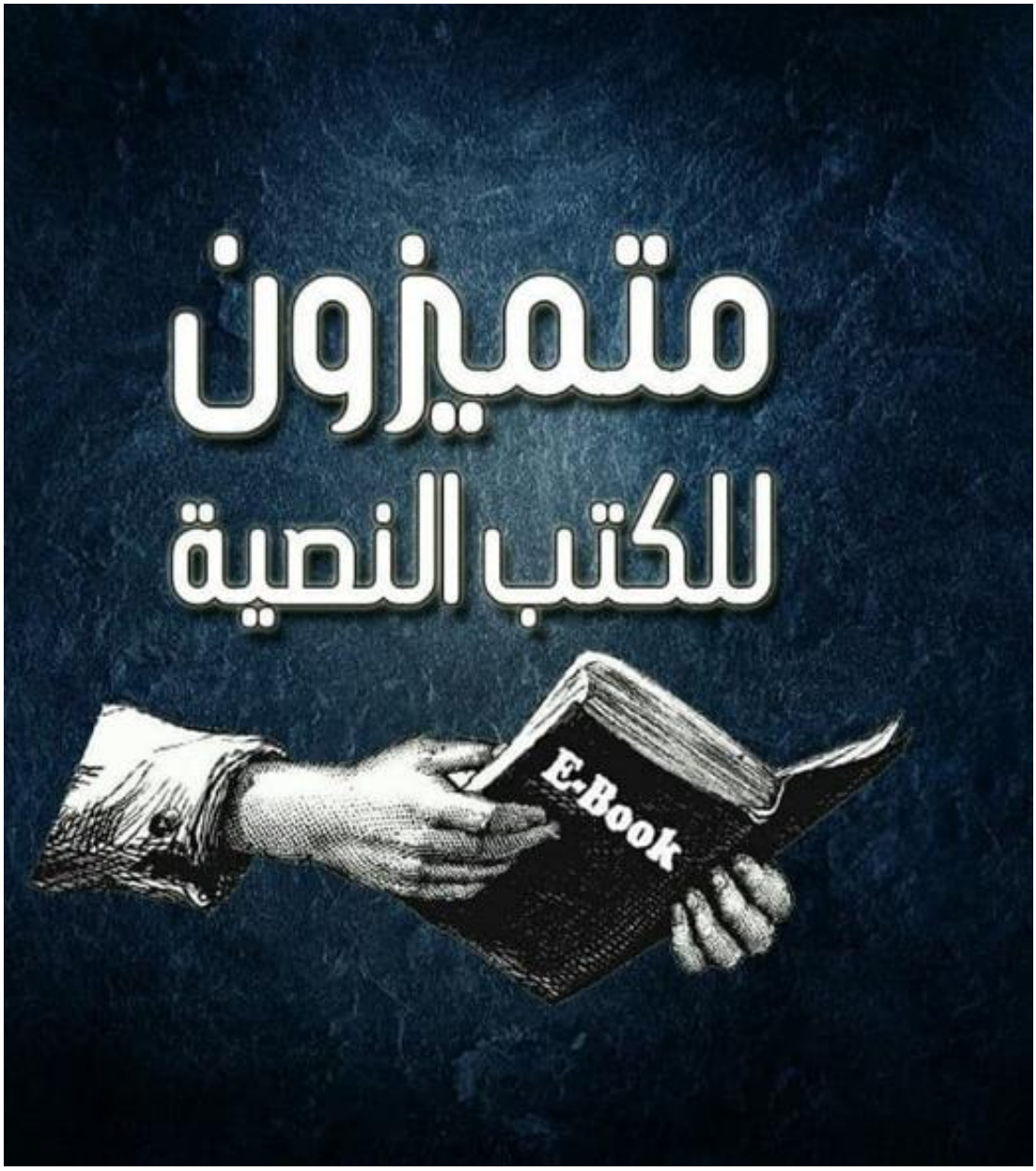
متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس:

هذا الكتاب

جحيم العودة

ثمن الحرمان

شجرة اللبلاب

الوجه البريء

الإحساس

سرعة القطار

الدوائر المتشابكة

الكتمان

الأمل الأخير

الوصية

ليالي الجفاف

السهم المسموم

سفينة القيادة

أصوات الحياة

القنبلة الرهيبة

اللقب الأبغض

ضرب السياط

الفهرس:

Notes

[←1]

الرعد: الآية 17

[←2]

سورة البقرة [الآية:216]